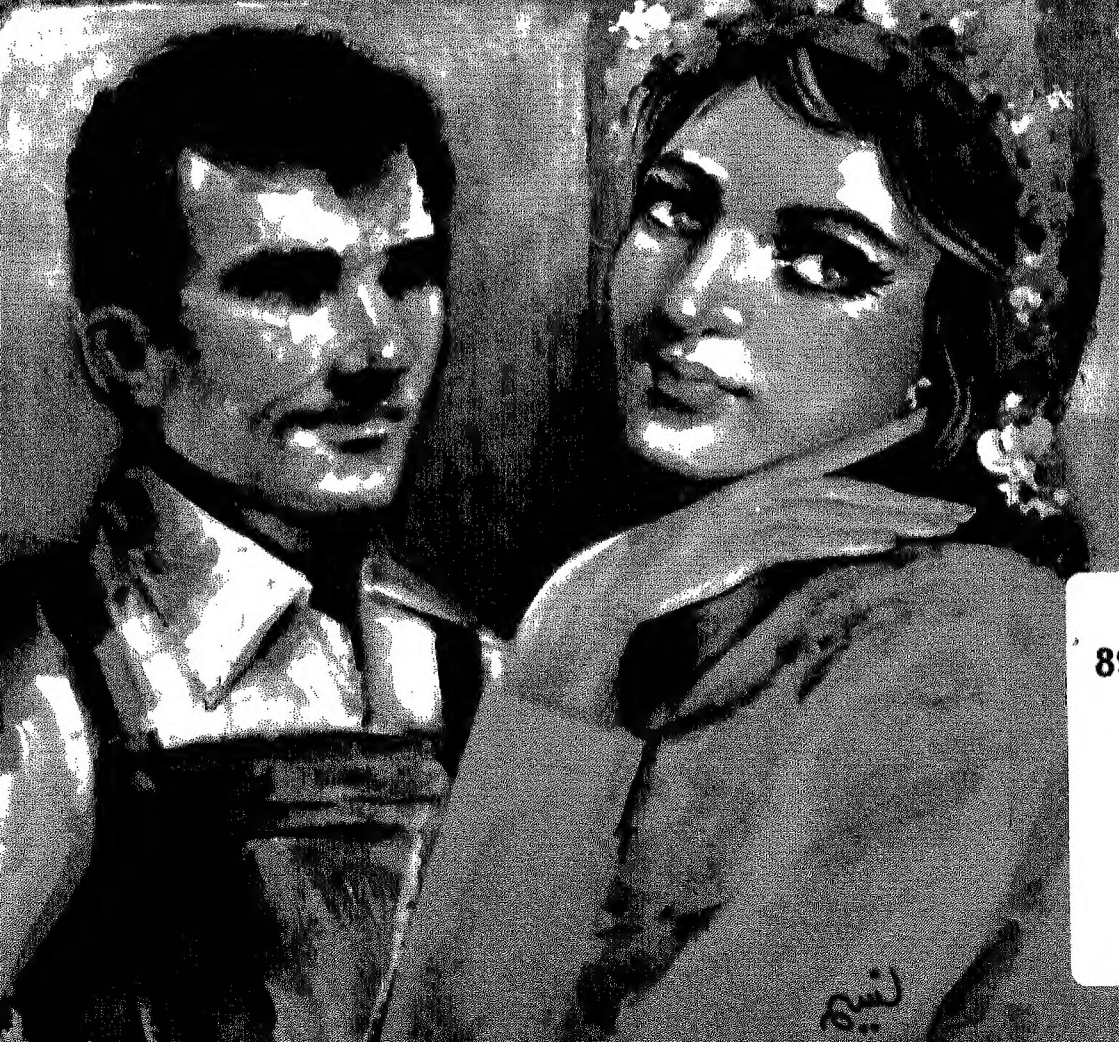




موسى عبد الحليم عبد الله

# حلم آخر الليل





محمّد عبد الحليم عبد الله

# حَمْدُكَ يَا خَيْرَ الْوَالِدِينَ

الناصر  
مكتبة مصر  
٣ شارع كامل مصطفى - الجيزة

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه



## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

### « حلم آخر الليل »

بقلم الدكتور : حلمى محمد القاعود

[ هذه الدراسة مهداة إلى روح المرحوم الأستاذ الدكتور سعد شلبى ، فقد كان يرحمه الله مهتماً بها وكان يتمنى أن يراها ويقرأها مع هذه المجموعة ، ولكن قضاء الله سبق .. ] .

هذه مجموعة قصصية لم تنشر فى كتاب من قبل للقصصى والروائى الراحل « محمد عبد الحليم عبد الله » — يرحمه الله — وتضاف إلى رصيده الكبير فى أدب القصة والرواية الذى يقارب الثلاثين كتاباً .

وقد نشر معظم هذه المجموعة على مدى عقد الخمسينيات ، وأوائل عقد الستينيات ، وبعضها فى أواخر الأربعينيات ، بعدد من الصحف والمجلات أبرزها : المصور ، وروز اليوسف ، والرواية ، والرسالة الجديدة ، والتحرير ، والثورة ، والشعب ، وحواء الجديدة ، ومنبر الإسلام .. وكان الكاتب يرحمه الله — قد بلغ فى تلك المرحلة درجة كبيرة من النضج ، جعلت هذه الدوريات وغيرها تتسابق إلى نشر إنتاجه الأدى ، وتغنى به وتبرزه من خلال لوحات ورسوم يقوم بها كبار الفنانين الذين يعدّون صفحاتها .

وهذه المجموعة تعيدنا إلى ذلك الفن الجميل الذى نفتقده كثيراً فى الإنتاج

( ج )

القصصى المعاصر ، والذي آلى على نفسه ألا يعبر — غالباً — إلا عن كل ما هو دميم وقيح ومؤذ للمشاعر الإنسانية ، دون أن يعطينا لمحة من جمال أو لمسة من ذوق تساعدنا على تقبّل الحياة ومواجهتها ، أو الاقتراب من مناطق النور والخضرة والأمل !. إننا للأسف نتعامل مع إنتاج قصصى تكاد مهمته تكون محصورة في التنفير من الحياة ، وزرع اليأس والإحباط بكل الوسائل الفنية الممكنة ، وهذا — لعمري — لا يشكّل — من وجهة نظرى على الأقل — صورة متكاملة للفن الناضج أو الأدب الإنسانى .

أما مجموعة « محمد عبد الحليم عبد الله » ، فإنها تقودنا بيد حانية إلى ذلك العالم الرحب الذى نرى فيه المشاعر الإنسانية متدفقة بالحياة والأمل ، وتحرك فيه الشخصيات من زاوية الرغبة في بناء المستقبل ، وليس من زاوية كراهية العالم ومن فيه . إننا بإزاء عالم قصصى يُشيعُ الدفء والحنان والعافية ، وينادى على كل المهمومين والمجروحين والمأزومين : ها هنا الحلم الجميل ، والسلوى الطيبة ، والعزاء الرقيق .. ثم يطلب منهم أن يسارعوا إلى معانقة الحياة والإصرار عليها في إطار جذاب وشائق وحميم .

إن الكاتب ينطلق في هذه المجموعة — كما في كل أدهه تقريباً — من رغبة قويّة ، في معانقة الإنسان الذى يتميز بالعاطفة الصادقة والوجدان الصافى والإحساس المرهف ، وهى رغبة يغذيها حسّه الإسلامى الذى ينحاز للإنسانية ويتعاطف معها ، في حالات قوتها وضعفها ، وشموخها وانكسارها ، وسموها وسقوطها .. ويحدب عليها دائماً باليد الحانية التى تهذب الشراسة ، وتجير الضعف ، وتواجه الضراوة والغلظة والقهر ، وتحنو على المقهورين والبائسين والمحتاجين ..

وهذه الرغبة التى تنصر للخير دائماً ، وتنبع عنه في كل مكان ، حتى بين الأنقاض التى يخلّفها الشر . نراها متألفة على جبين الشخص الميثوثة في ثانيا القصص ، وهى شخوص متنوعة تتراوح بين الإنسان البسيط والإنسان المثقف .. شخوص تنظمها صور الطالب والتلميذة ، والمدرس وناظر المدرسة ، والترزى والموظف الصغير ، والفلاح والعامل ، والأرملة والمطلقة ، والعروس في شهر

## ( ح )

العسل والبقى رغما عنها ، وسائق التاكسى والخدام ..  
والكاتب يقدم هذه الشخصيات من خلال تحليل فنى لغوى راق يعتمد الوصول إلى أعماقها النفسية والعاطفية ، فيصوّرُها من الداخل تصويراً ممتعاً ورشيحاً ، بلغة نفتقدها عادة في هذه الأيام ، ولا يصعب عليه أن يرصد المشاعر الدقيقة لهذه الشخصيات في حالات مختلفة ، فنراه يقدم لنا مشاعرها حيّة متحركة في لحظات الفرح والحزن، والميلاد والموت ، والعافية والمرض ، واللقاء والفراق ، والبهجة والكآبة ، والسرور والألم ، والاندماج والوحدة ، والامتلاء والخواء ..  
ويصوغ الكاتب هذه الأحاسيس الإنسانية المشبعة بروح إسلامية في تصوير فنى رقيق ينتظم قصص المجموعة ، ويجعلنا نتوقف عند بعض النماذج حتى يرى القارئ ملامحها ودلالاتها ، وهى نماذج تنتظم البسطاء من الناس الذين يكوّنون معظم المجتمع ، أو يشكلون طبقته العريضة ؛ هذه الطبقة التى تتعامل مع الحياة بمنهج الفطرة والبساطة ، وتحاول أن تحقق ذاتها أو رغباتها بتلقائية أو عفوية بعيدة عن المكر والخبث والدهاء ، أو التفتيدات التى باتت تشكّل حياة الإنسان في المجتمعات المتمدنية أو التى أخذت من المدنية قشورها وأمراضها ..

النموذج الأول الذى نختاره من المجموعة هو نموذج المرأة الغيور التى تسعى إلى امتلاك زوجها كله . ويدب الشك إلى نفسها . ويتسرب الخلل إلى نسيج الحياة الزوجية مما يكاد يهددها ويحطمها تماما .. هذا النموذج الحاد العاطفة ، والذى يعبر عن نفسه بمحبة أيضا ، لا يسمح له الكاتب أن يصل إلى غايته بتحطيم الأسرة ، بل يقدم له طرق النجاة ممثلاً في النموذج المقابل . وقصة « الشئ الممكن » ، تصوّر لنا هذا النموذج المقابل ممثلاً في الصديقة التى لا تتكلم كثيراً ، ولا تبدى شيئاً عمّا تعانیه في حياتها الزوجية ، بل تحاول أن ترى الجانِب الطيب في حياة زوجها أو تخلقه خلقاً ، لتستعين به على الجوانب الأخرى غير الطيبة « أحسّت أنها تزوّجت أداة من الأدوات ، نوعاً يكاد يكون خائياً من العواطف . هو حقيقة ملئ بالحياة ، ولكن

( ٤ )

إذا كانت الحياة شجيرة ، فإن العواطف أزهارها ، وهى خلاصة إحساسنا وعطر وجودنا ، وكانت صاحبتنا تعلم ذلك لكنها لم تفزع حين رأت بيتها مليئاً بكل شيء إلا الأزهار ..

هذا النموذج الذى خلا بيته من كل شيء إلا من الأزهار — رمز العواطف واستمرار الحياة فى صورتها الراقية — لا يستسلم لليأس أو الإحباط ، وإنما يفزع إلى الصلاة — وهو تصور إسلامى واقعى — والفزع إلى الصلاة ملاذ حقيقى وطبعى ، يسجل به اللاند خطوة تلقائية فى الاتجاه الصحيح نحو من أعطانا منحة الوجود ، وهو بدوره قادر على إعطائنا منحة الصبر على ما يقلق هذا الوجود ، « كانت نصلى كلما كانت مهمومة خصوصاً فى الليل عندما تتكاثر على جسمها متاعب النهار وعلى قلبها هواجس الظلمة » ، وكأن الكاتب يشير بذلك إلى الآية الكريمة ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ ( البقرة ) . إذاً فهذا النموذج المتمسك بأهداب الإيمان ومواجهة المحنة ؛ يبحث عن المناطق الخضراء ، أو دوائر الضوء فى حياة الأسرة ، فتجد الزوجة الصبور أن زوجها يتميز بقدرته على تحملها وعدم إغضابها ، فتحاول أن تستفزه مرة ومرة ومرة ، وفى كل مرة لا يحاول أن يسئ إليها أو يردّ عليها الاستفزاز كما يُتوقع ، وعندئذ تدرك أن هذا جانب مضىء وعظيم فى حياة رجلها . « وكانت كلما سجّلت فى إثارته رقما سجل فى الصبر والعفو عنها رقما أعلى ، حتى كان يوم من الأيام فأنخرطت فى بكاء شديد بعد إحدى التجارب ، واحتضنته بخنان ، وهى تقول له : أنت لا تدري أى رجل أنت ؟ أنت أكرم من ملك . إننى أحبك . فأحسست فى روحه بهماً جديداً ، ومنذ ذلك التاريخ عاشت حياة ليست كحياة العشاق ولكنها خالية من المتاعب » .

إن الكاتب يحرّك شخصياته بمهارة بحيث تمتص كل الصدمات ، وتستوعب كل الأزمات ، وتبدأ فى التغلب عليها ومواصلة الحياة : « ليس فى الموقف شيء خارق للعادة . أكبر الاختراعات يبدأ بمحاولة وأطول الرحلات يبدأ بالخطوة



( هـ )

الأولى .. » .

وهذا النموذج لا يختلف كثيرا عن النموذج الذى يقدمه فى قصته « امرأة ومصباح » : فالنموذج هنا مدرّب على العطاء ، والعطاء بلا حدود بالرغم من وجود من « يأخذ » فقط . والمفارقة قد تبدو نوعًا من السلوك الساذج عند من « يعطى » ولا « يأخذ » . ولكن على الحافظ على العطاء شيء كبير .. بل أكبر من كل شيء .. إنه الحب الغريزى الذى وضعه الخالق فى قلوب الوالدين للأبناء « فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا وقد يزيد عليه ، ونحن مع ذلك وفى غفلة لذيذة ندفعه مسرورين » .

ويقوم الكاتب مفارقتها من خلال أم تسعى لزواج بناتها ، بعد رحيل زوجها ، فتبيع البيت الذى أقامته معه بالعناء والعذاب وشد الحزام المشدود أصلاً — ويتم البيع جزءًا جزءًا ، مع كل زواج يتم بيع جزء . وعندما يتم زواج البنات تستأجر غرفة السطح فى البيت الذى كان ملكا لها ولأولادها ، وتعمل على ماكينة الخياطة لتواصل الحياة .. بينا البنات اللاتي تزوجن يمارسن الحياة وكأن شيئًا لم يحدث .. وها هى أخبار بناتها « زينب » و« فاطمة » و« رقية » بعد رحيلها تصنع المفارقة ، وتؤكد على الضرية التى تستغرق الدخل كله « وقد تزيد عليه » :

« فى بيوت أخرى ، قال محمد لزينب :

— هل اطعمأنت على يحنان الولد .. أوه .. لكأنك مريضة منذ شهر .. هذا هو حال الدنيا .. تعالى قريبا منى ..

فالتصقت به فى صمت ..

وقال على لفاطمة :

— هل أعطيت البنت دواء السعال ؟ هل غليت الطيبخ حتى لا يحمض ؟ ..

أوه .. ليس فى عينيك بقية للبكاء . تعالى قريبا منى .

فسحبت عليهما الغطاء .

( و )

وقال إسماعيل لرقية :

— إن خدك ملتهب من اللطم . إنها تنام في قبرها مرتاحة .. فقد اطمأنت على مصير البنات .. أوه .. خدك ملتهب جدا .

وحين مرّت أنامله على خدّها أحسّت بنعومة المرهم ..

وبعد ساعة أخرى كانت البنات الثلاث مستغفرات تماما .. » .

لقد ضحكت « الأم » بكل شيء من أجل بناتها وسعادتهم ولم تعباً بكلام الناس وتعليقهم على تصرفها ببيع البيت وإنفاق ثمنه على زواجهن ، والعيس في غرفة السطوح » وتهامس أهل الحى بأمر هذه الأم ، وقال ناس إنها محقة . وقال ناس بل إنها مخطئة ، فلو كان زوجها يعلم أن البيت الذى خلّفه سيؤول إلى هذا المآل ما بذل فيه جبة عرق .. » ولكنها كأم وجدت فلسفة لهذا العطاء الكبير ، أو وجدت المبرر الإنسانى المجرد الذى يعلو على كل المقاييس المادية المجردة » ثم بدأت تشعر بشيء يخوفها . كأن حادثاً كبيراً سيدق عليها باب الغرفة الذى يهزه في الليل هواء الشتاء ، وقالت في نفسها ، هل سيموت زوجى مرة أخرى ؟ واستغرقها بعد ذلك فكر لديد :

— آه .. « زينب » فى حضن « محمد » . و « فاطمة » فى حضن « على » .  
وأخيراً .. « رقية » فى حضن « إسماعيل » .. كل بنت تحت جناح رجل . هل فى الدنيا أعزّ من هذا ؟ » .

هذا التبرير الذى تقدمه الأم لتضحيتها تبدو أهميته وعظمته — وربما سداخته — من خلال ذلك الصراع الرخيص بين البنات على ماكينة الخياطة التى تركتها الأم ، وهو صراع لا يعبأ بشيء ، ولا يضع فى اعتباره تضحيات الأم العظيمة .. بل يبدو قائماً على الجحود والعقوق .. ويا للسخرية حين نراه يتلفح بعباءة الشرع الكريم .

» .. والتقت النظرات أخيراً على ماكينة الخياطة .

لكن الصغرى صرخت فيهما :

( ز )

— هل جئنا من أجل ذلك ؟

فقلت أختها :

— حتى أنت .. هل هذا حرام ؟ إنه أحل من لبن الأم !! » .

إن الكاتب يجعلنا نتعاطف مع هذه المرأة ، ونقدر عطاءها ، ونحترم عاطفتها وغريزة الأمومة التي جعلتها تكافح حتى تموت منكفئة على ما كينة الحياطة بينما مصباح الغاز يلفظ أنفاسه الأخيرة ، من أجل سعادة بناتها ..

ونعثر على نموذج مشابه يقدمه الكاتب في قصة « بقية العمر » . إنه نموذج المرأة التي تكافح من أجل أسرة مازال ربها على قيد الحياة ، ويتمتع بالصحة والعافية والحرفة ، ويمثل النموذج السلبى الذى يجيد الكسل والهروب من الحياة والغرق في بحار الوهم والخيال .. ولسبب ما لا أدريه جعل الكاتب معظم نماذجه المكافحة ، والمقاومة لمناعب الحياة من « النساء » ، ليس في هذه المجموعة فحسب ، بل في مجموعات وروايات أخرى .. لعله أراد أن يبين أن الإنسان مهما كان ضعيفاً ( والمرأة أبرز النماذج التي يظهر من خلالها الضعف ) يستطيع أن يواجه الحياة بشجاعة وورانة وصبر ، ثم يمكنه أن ينتصر في النهاية أيًا كان هذا الانتصار .. ولو بالسعادة التي تنتقل عدواها من سعادة الآخرين الذين يحبهم ويعمل من أجلهم .

في قصة « بقية العمر » نجد زوجة عم « زكى » — المنجذ — مثلاً للمرأة التي يتلها القدر بزواج مهمل ، يحلم أكثر مما يعمل ، ويطلب منها ما لا تملك ، وهى مرغمة في الوقت ذاته على تسيير دفة الحياة الأسرية « وكانت في الواقع امرأة مستقيمة كحد السيف ، عاشت في بيت عم زكى كما يعيش القبطان العظيم فوق ظهر سفينة صغيرة قديمة تلفة العدة » ، وكانت تدير البيت « بطريقة سحرية ، تقترض ولا يشعر أحد ، وتؤخر أجرة السكن ولا يشعر أحد ، وتطهو أحسن أنواع الأطعمة بطريقة من يحمر خروفاً ، وتبتسم في قلبها جروح .. وكانت تقول لأمي عندما يفيض بها الغم : إنه لا أمل .. لا أمل إلا في شيء من شيئين : فإننا أن تموت

## ( ح )

فترتاح ، وإما أن يصير ابنها صلاح رجلاً من غير طراز أبيه .  
 هذه الزوجة الأم تواضل مسيرتها وكفاحها حتى تلقى وجهها ، ويبقى زوجها  
 كما هو ، بكسله ، ولا مبالته ، وأحلامه ، ولا بأس أن ننقل تصوير الكاتب  
 لشخصيته : « كان كسولاً ثرثاراً مهملاً أكولا ، من نوع الرجال الذين يستطيع  
 الفساد أن يتسلل إلى بيوتهم بسهولة .. فالنقود القليلة التي يقدمها لزوجته ، والنقود  
 الأقل التي يمدّ صلاح ابنه بها البيت ، كان عم زكى يريد أن يأكل منها ويدخن ويهمل  
 ويرتاح ويحكى لضيوفهم حكايات خرافية من أيام العز .. أيام كان للمنجد عز  
 الحرير وعظمة القطيفة .. وكانت النفوس سخية والأفراح تقام سبعة أيام بلياليها ..  
 أما زوجته فكانت تضيق بهذا كله وتكتم تهدياتها عن الحاضرين .. » .

لا شك أن « محمد عبد الحليم عبد الله » أراد أن يرفع من قيمة النموذج العامل ،  
 ويسخر من النموذج العاطل ، وقد استعان على ذلك بتصوير حيّ يعتمد على الروح  
 الشعبى الذى ينحت معجماً خاصاً دلّته في الوجدان الاجتماعى « أيام كان للمنجد  
 عز الحرير وعظمة القطيفة » ، ولكنه يتقدم خطوة وأخرى في تصوير النموذج  
 العاطل ، الذى يأخذ دون أن يعطى ، يحدثنا في ختام القصة عن نوع الوظيفة التى  
 يطمح إليها عم زكى بعد أن ماتت زوجته :

« .. وحرّكنى فضول شديد فحاولت أن أعرف ماذا عسى أن يكون نوع وظيفة  
 تصلح لعم زكى ويصلح لها عم زكى . فسألته ، فقال ببساطة من يوضح أمراً  
 واضحاً :

— خفير !

قلت مستغرباً :

— خفير ؟ .. خفير على ماذا ؟

— خفير مراحيض ..

فقلت في نفسى وأنا أهبط السلم وأدور مع الخناعاته في ظلمة النهار :

## ( ط )

— وجب .. هذه أحسن مهنة تناسب هذه الهمة .. »

وواضح أن عنصر السخرية هنا — وهى سخرية راقية إن صبح التعبير — يلعب دوراً كبيراً فى تصوير شخصية عم زكى النموذج السلبي المقابل للعنصر الإيجابي الذى تمثله زوجته .

وهكذا ينجح الكاتب فى تقديم نماذجه التى تتضمنها قصصه ، فراها فى العادة شخصيات قادرة على العطاء بالرغم من كل الصعوبات التى تواجهها فى مقابل شخصيات مستعدة أو متحفزة للأخذ دائماً ، ومبررات العطاء عنده بسيطة وسهلة .. إنها نفسها مبررات الحياة .. الحياة الإنسانية التى يشعر فيها صاحبها بطعم الحياة الحقيقى ، وهذه الحياة الإنسانية ملاعبها وسماتها التى تتمثل فى حركة العواطف واختلاجها داخل الصدور وخفقانها بالحب والأمل ، والعطاء والسمو .. وكثيراً ما نعتز على نماذج تضحي بكل شئ من أجل هذا الخفقان الذى لا يعرفه من يكتفون من الحياة الإنسانية بجانيها « البيولوجى » فقط . إن هذه النماذج مبهوثة فى معظم القصص « انظر مثلاً : اقتلوا بسيف الحب — أملان يتحققان — حلم آخر الليل — جددنا المواعيد — السلوى .. ) .

واعتقد أن هذا الاتجاه الإنسانى المتوهج الذى يلح عليه « محمد عبد الحليم عبد الله » هو الذى يجعل لقصصه قيمة مستمرة ، بحيث تجد فيها الأجيال المتتابة ، ما يشبع وجدانها المتلهف لقطرة ضوء وخففة أمل ولحظة صفاء ، ويساعد على تجاوز الصعاب وتحقيق الغايات .

وقد اختار الكاتب لهذه النماذج إطاراً فنياً يقربنا إليها أو يقرّبها إلينا ، هذا الإطار هو القص بضمير الغائب غالباً ، وضمير المتكلم أحياناً ، ومن خلال الالتفات يعتمد على أسلوب فيه مودة وألفة .. صديق يحكى لصديق . وهذه ميزة يفتقر إليها معظم إنتاجنا القصصى المعاصر الذى يجعلنا نشعر تجاهه بشئ من الغربة أو النفور ، بسبب استعلاء الكاتب ، أو محاولته أن يكون أستاذاً . العكس عند « محمد عبد الحليم عبد

## ( ى )

الله » ، وهو يقدم غناذجه . تستشعر أن بينك وبينه ودّ قديم ، وسابق معرفة ، ولهذا يتسلّل إلى نفسك في نعومة وسهولة لا تحسّ معهما أنه سيعطيك درسًا في مقاومة الحياة أو مواجهتها ، أو يدعوك للسخط عليها وعلى من فيها .. ولكن قربه منك يجعلك تلقى إليه بكل نفسك وسمك وبصرك وعقلك ، وتتابعه بشغف وتلهف ، ورضا .. ولهذا تستجيب له ، وتتفاعل مع جميع شخصياته ، حتى الشخصيات الزائدة عن الحاجة ، بل ومع القصص الخارجية التي يتخذ منها مدخلًا أو مقدمة للقصة الأصلية أو الموضوع الأساسى الذى يريد أن يحكى لك عنه .. صحيح أنه يتكىء على الحادثة أو الشخصية ليقدم قصته القصيرة . ولكن اهتمامه الكبير « بالرواية » التي برع فيها وصار من أبرز بُنائتها المحدثين ، جعله ينسى أحيانًا أنه يكتب قصة قصيرة مكثفة الحوادث والشخصيات ، فيقدم لنا مشروع رواية حيث تعدد فيه الشخصيات والحوادث ، أو يقدم قصة من داخل قصة ، أو يمدّد زمن القصة بحيث يطول طولًا زائد على الحد المتعارف عليه في القصة القصيرة ..

إننا لو نظرنا مثلًا إلى قصة « اقتلوني بسيف الحب » سنجد الفترة الزمنية تطول إلى مدى لا تحمله إلا رواية . وكذلك قصة « أملان يتحققان » ، أما في قصة « بقية العمر » التي أشرنا إليها فهي تحفل بأكثر من قصة هامشية ترتبط بالقصة الأساس ، ولكن في إطار زمنى مطّول .. ولعل القصة التي تجاوزت هذا المأزق ، قصة « السلوى » ، وإن كان الكاتب قد صاغها ببراعة فيما يشبه المفارقة أو التوازي بين قصة السائق وخطيبته ، وقصة الرجل والمرأة اللذين ركبًا التاكسى ثم شاهدا الفيلم ، وقصة الفيلم ذاته التي تدور بين امرأة وحبيبها وهما في مرحلة الفراق .. ومثل قصة « السلوى » قصة « جددنا المواعيد » و« يريد أن ينساها » و« اليوم الموعد » ، فقد راعت التكثيف والتركيز في الحوادث والشخصيات إلى حد كبير .

وكما قلّت منذ قليل ؛ فإن المودة التي يزرعها الكاتب في نفس قارئه تجعله يتجاوز هذه السليبيات في البناء القصصى ، ويغفر له أنه من البناء الذين أصلوا فن القصة

( ك )

والرواية في أدبنا الحديث ..

ويبقى أن نشير إلى ظاهرة من أهم الظواهر الفنية التي تميز بها أدب « محمد عبد الحليم عبد الله » ، وهي أسلوبه المضيء الذي يحقق معادلة من أهم المعادلات المفقودة لدى الكثيرين ، بعد أن ابتليت الحياة الثقافية بكتاب لا يفقهون أوليات التعبير الأدبي ، ويكتفون بالثرثرة عن بعض النظريات الأدبية التي لا تحقق تقدماً أدبياً يذكر . هذه المعادلة هي التعبير الأدبي المتميز من خلال أسلوب راق في عفوية وتلقائية . ويمكن أن نعتبر « محمد عبد الحليم عبد الله » تلميذاً من أهم تلاميذ « مدرسة البيان في النثر الحديث » بعد جيل الرواد ، بل نعتبره الصورة المطورة والمتقدمة لأسلوب واحد من الرواد بعينه هو « مصطفى لطفى المنفلوطى » .

إن محمد عبد الحليم عبد الله في أسلوبه القصصى هنا ، وفي كتبه الأخرى يحتفى بالأسلوب احتفاءً كبيراً ، ويقدم لنا لوحات رائعة ، يظهر فيها الأسلوب المطبوع الذي يحقق تناسباً وتناشاً وتناغمًا ، دون أن نشعر فيه بأثر للافتعال أو التكلف . إنه الأسلوب الذى يضم جناحيه على المعنى الجميل والأداء المتألق ، ويخلف لنا المتعة والإحساس بجودة الفنّ وجماله . ولنقرأ هذه اللوحة من قصة « الشيء الممكن » وهي تصوّر كيف تغلبت « سعاد » على إحساسها بالفشل في حياتها الزوجية :

وفي إحدى الليالي حاولت أن تتجه إلى الله في صلاتها بمشاعرها كلها . أحست أنها تريد أن تكلم أحداً وأن تستعين بمن هو أقوى منها . وبطريقة آلية بدأت صلاتها . ورويدا رويدا زالت الآلية عن الصلاة وحل محلها اندماج وخشوع وشيء يكاد يكون اتحاداً . فلما فرغت رأت دموعاً على خدها وراحة بين جوانحها .

ومنذ هذه الليلة أدركت أنه من الممكن تحريك المشاعر بالطريقة التي تحرك بها « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام . وهكذا يصير من يتكلف الصبر ، ويتشجع من يتكلف الشجاعة ، ويبكى من يتكلف البكاء .. وقد يجب من يتكلف الحب .. هل تسمعيني يا أحلام ؟

( ٥ )

— نعم أسمع ..

— ومنذ هذه الليلة أخذت تبحث في زوجها عن نقطة تبدأ منها عملية « الحب » ، فوجدت فيه شيئاً جديراً بالحب . هو أنه رجل صبور شديد الاحتمال يتسامح عن غضبها وأخطائها حياله . فماذا فعلت ؟  
صارت تتعمد أن تغضبه فينظر إليها نظرة الصابر الغافر . عندئذ تتجه إل قلبها لتقول له : « ألا تستطيع أن تحبّ هذا أيها الجاحد ؟ » .. إلخ .

هنا أسلوب بسيط وسهل ، ولكنه ممتنع كما يقول البلاغيون والنقاد ، لا يصل إليه إلا الأديب الموهوب الذى يملك ثروة أدبية ضخمة تجعله يصدر عن طبع ، ويصور عن فطرة ، وما هو يرسم حال الزوجة البائسة الوحيدة في سعيها إلى من يشار إليها همومها ، واندماجها في الصلاة — بعد أن كانت تؤذيها بآلية — ثم تعرفها على الطريق الصحيح إلى حلّ مشكلتها .. وهو أسلوب متميز بلا شك ، لا أثر فيه للكليشيهات المحفوظة عن السابقين ، ولكنه مستقل بذاته وبصوره وتشبيهاته . وانظر إلى تصويره لعملية تحريك المشاعر كما يتحرك « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام ، تجد تعبيراً يستحق أن ينسب إلى محمد عبد الحليم عبد الله ؛ بالرغم من بساطته ويسره وقربه إلى كل الناس .

وفي هذا الأسلوب خاصية أخرى تحتاج إلى وقفة طويلة ليس هنا مجالها ، ولكننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض نماذجها وملاحظاتها .. هذه الخاصية هي ما يمكن تسميته بفن « استخلاص الحكمة » أو فن « صنع الحكمة » عبر السياق السردى أو الحوارى الذى يجرى فى القصة . فقد ينثر الكاتب فى ثنايا قصته أو روايته حكمة هنا ، أو قولاً مأثوراً هنالك ، وتبدو الحكمة أو القول المأثور بمعزل عن السياق ، ويمكن بترها دون أن يتأثر النصّ ، ولكن الأمر هنا يختلف تماماً ، فالكاتب يجعل من الحكمة أو القول المأثور جزءاً من النسيج القصصى لأنه يستنتج من خلال الموقف القصصى ، فيعطى مذاقاً خاصاً ومتميزاً له دلالة ، وديمومته أيضاً . ويستعين الكاتب فى ذلك



( م )

بكل عناصر البيان والبديع المتاحة ، التى تجلو الحكمة المستخلصة فى قالب أنيق وجميل . يقول فى قصة « حلم آخر الليل » : « فى حياتنا مناطق يجب أن تبقى فى ظلام . والويل كل الويل لمن يسلط عليها الأضواء بيديه أو لمن ترسل له المقادير شعاعاً من الخارج يضيئها على الرغم منه .. » ويقول فيها أيضاً : « إن أخطأنا هى أكثر الحقائق فاعلية فى حياتنا . أما الصواب فإننا نعلم بشمراته فتلهينا ثمراته عنه .. » .

وفى قصة « اليوم الموعود » يقول : « لكن الحقيقة فى موطن الشبهة أضعف بكثير من الباطل إذا ظللت الثقة » أو يقول : « والسؤال المؤلم يؤلم ، ولو كان صادراً عن سداجة أو حسن نية » .

وفى قصة « اقتلوا بسيف الحب » نقرأ قوله : « أعطيته ما طلب لأذوق طعم الغفلة فقط ، أو لأذوق طعم الحب ولو كان فى كأس من الاحتيال ، أو قوله « عجب أن نحب فنسعد ، وأن نحب فنموت » أو قوله : « شاخ الخدر فى عينها لكنه بقى حياً » .

وفى قصة « امرأة ومصباح » يقول : « فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا كله ، وقد يزيد عليه ، ونحن مع ذلك ، وفى غفلة للذة ندوقه مسرورين » أو يقول : « والخبز مُشبع جداً لمن يغمسه فى القناعة » .

وفى قصته « الشئ الممكن » يتحدث عن الفراق فيقول : « وفى اللحظة الأولى التى يبدأ فيها فراق الأصدقاء يسأل كل نفسه ، ويسأل الآخر : كيف يستطيعان التغلب على الزمن وصنع النسيان ؟ وتبدو المشكلة فى الواقع ضخمة عسيرة ، ولكن حركة التجديد والتعويض تقهر كل شئ وتضمن لحياتنا الاستمرار .. »

إن القارئ يعثر على نماذج وعينات كثيرة لاستخلاص الحكمة أو الحكمة المستخلصة تصنعها المواقف القصصية ، ويصعب أن نبتزها عن السياق لأنها جزء منه ومرتبطة به ، ومع ذلك ، فإننا نستطيع أن نستفيد بها كصورة تعبيرية مستقلة تحمل لنا تعبيراً حكيماً يظل معنا إلى أمد بعيد .

( هـ )

وبعد ..

فإن هذه المجموعة « حلم آخر الليل » بقايا عطر من مؤلفها الراحل « محمد عبد  
الحليم عبد الله » وهى تعيدنا مرة أخرى إلى عصر القراءة الجميل الذى غاب عنا  
طويلاً ، وتجعلنا نعيش فى واقع قصصى مفعم بالحياة الإنسانية ، ويقوم على أسس  
فنية لا يقدر عليها إلا واحد من أعمدة الأدب القصصى والروائى فى عصرنا الحديث  
هو : محمد عبد الحليم عبد الله ؟

أبو المجد بحيرة : ١٥ من جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ

١٤ من فبراير ١٩٨٧ م

حلمى محمد القاعود

## قصص المجموعة

- |                      |                        |
|----------------------|------------------------|
| ١ — حلم آخر الليل    | ١٢ — أملان يتحققان     |
| ٢ — الراية البيضاء   | ١٣ — بركة مخزن القمح   |
| ٣ — سقف من الزجاج    | ١٤ — بقية العمر        |
| ٤ — الشيء الممكن     | ١٥ — صديقان في المدينة |
| ٥ — السلوى           | ١٦ — جددنا الموعد      |
| ٦ — التلوى بسيف الحب | ١٧ — عبير الحرية       |
| ٧ — الرجل المريض     | ١٨ — قلب إنسان         |
| ٨ — سحابة صيف        | ١٩ — اليوم الموعود     |
| ٩ — امرأة ومصباح     | ٢٠ — لقاء في الصيف     |
| ١٠ — يريد أن ينساها  | ٢١ — حنانك يا أنى      |
| ١١ — زوجة مثلها      |                        |



حلم آخر الليل



كل ما كنت أرجوه فى حياتى بعد أن بلغت الخامسة والخمسين ، أن أقضى بقية أيامى وأنا هادئ مرتاح ، لا يعكر الفكر صفوى ولا يحال بينى وبين لذات عادية . وهذا هو آخر أحلامى فى حياة كأنها ليل طويل .

لقد كنت جد طموح فى أيامى الخالية ، لكن المقادير عارضت طموحى وأقامت فى طريقى العراقيل ، فرفعت الراية البيضاء معلنا تسليمى ، وأقنعت نفسى بأنه لا بد من الرضا بالواقع لأن السنوات القادرة والأيام المثمرة من عمرى قد ولت ولن تعود ..

وجلس فى هدأة الليل أفحص مرافقى واحدا بعد واحد ، حتى اطمأنت إلى أن بين يدى من المال ما يصون كرامة الحى ويحفظ قيمة الإنسان : معاشى لا بأس به من وظيفتى فى الحكومة ، ودخل متوسط من بيتين لى فى القاهرة أحدهما فى حالة جيدة والآخر عمره أطول من عمرى ، فهو لن يهدم إلا بعد أن أموت ..

وبعد ذلك كله .. فإنه ليس لى وارث من صلبى .. وهذا هو حجر الزاوية فى قصة حياتى ، والشئ الذى يلقي ظله على تصرفاتى مع الناس وخصوصا زوجتى وأقربائى .

\* \* \*

أصبحت ذات صباح فأعلنت لزوجتى بعد أن فرغنا من الفطور وقبل أن نقوم عن المائدة ، أننى عزم على أمر .. خلاص .. ولعل أمارات الجدد كانت بادية على وجهى لأنى رأيت مدى ذلك على ملامح زوجتى

— ٦ —

الجميلة التى تكمن أنوثتها كلها — وبكل إمكانياتها — فى صوتها وحده .  
قالت تستفسر عن ذلك الأمر :

— إيه .. خير ..

قلت :

— كل متحرك على الأرض يسعى إلى غاية ..

ثم سكت ونظرت إلى خشب الخوان ويدى تعبت بإحدى الملاعق ،  
وألقيت بسمعى هنيهة إلى واعظ الصباح فى الراديو وهو يجهد نفسه  
مؤكدًا لنا حقارة الدنيا ، ثم ألقيت بالملعقة فى حركة تنم عن إصرارى ..  
ونظرت إلى زوجتى فرأيتها لا تزال مرهفة سمعها وعيناها مفتوحتان  
لا تطرفان ، فأكملت :

— أنت معى يا سيدتى فى أن كل متحرك على الأرض يسعى إلى  
غاية .. أى قطار .. أو أى إنسان .. وحتى أى حيوان ..

فزمت شفيتها قبل أن تدعهما تنفرجان عن بسمه مستترية ، على حين  
تابعت حديثى قائلاً :

— إلّا أنا .. أنا يا سيدتى .. فحركتى طوال هذه السنوات لم تكن  
إلى غاية . « لا تخلف ولا تلف » وإنما ينطبق علينا المثل « رب ساع  
لقاعد » وبعد سنوات يعلم عددها الله سيختلف الورثة على كل شئ ..  
إلا على لعنتى فى التراب ..

قالت زوجتى :

— وماذا تقصد ؟

فأجبت فى حزم :

— أقصد أننى سأستقيل من خدمة الحكومة وأسوى معاشى ،



وأجلس لأمسح عن وجهي العرق حتى تدركني المنية .. لا داعي  
 للتعب .. لا داعي له مطلقا ، فإن حركتي كانت بلا غاية .  
 ثم قمت محنقا كأنما دب بيني وبينها خلاف ، حتى دخلت إلى حجرة  
 نومي فأكملت لبس ثيالي وعلقت عصاي في ذراعي ، وألقيت على  
 زوجتي تحية مختصرة وأنا في طريقي إلى الخارج .  
 وكانت في مكانها إلى المائدة كأنها لم تقو على النهوض . ثم صفقت  
 الباب خلفي وهبطت الدرج ، ولم تخف عني حرارة أفكاري إلا بعد أن  
 صافح وجهي هواء الشارع .

\* \* \*

ومنذ ذلك الحين أحسست كأن شيئا ما يعتمل في نفس زوجتي ،  
 وكأنما قامت بيني وبينها خصومة . كانت خصومة باردة أسلحتها معنوية  
 صرف ، وذلك شيء لا يدركه إلا الأزواج وحدهم بعد التجربة  
 الطويلة . فيستطيع الزوج أن يشم جو البيت بعد أن يعبر عتبة ، فيعرف  
 أن خلافا ثار أو أنه سوف يثور .. أو يحس كأن راية بيضاء غير مرئية  
 ترفرف في نواحي السكن ، وقد يحس العكس فيشم رائحة الخطر كما يشم  
 البحار رائحة العاصفة .

إننا لم نعقب نسلا ولا يعلم إلا الله لماذا لم نعقب نسلا .. وتضارب  
 الأطباء في تشخيص الحالة .. وكنت أصدق من كان رأييه في صف  
 رجولتي ، وكانت تصدق من كان رأييه في صف أنوثتها . وتشعب بنا  
 الحديث مرة حول النسل ، حتى زل لساني فقصصت عليها قصة زوجين  
 عانيا نفس مشكلتنا عشر سنوات ثم افترقا .. ثم تزوج الرجل من غيرها  
 وتزوجت هي من غيره فحدث شيء عجيب تدركه أنت الآن ، وهو أن

كلا منهما قد أنجب ..

وثارت الزوبعة فى بيتى بعد أن أتممت هذه القصة ، وكانت ماطرة ذات صراخ ودموع كلفتنى جهدا كبيرا حتى استطعت أن أعيد كل شيء إلى ما كان عليه .

لكن الأمور عادت فتعقدت مرة أخرى .. تعقدت فى نفسى بشكل أظنه لا يقبل الحل . وكان ذلك فى الليلة التى سهرتها أفحص مرافقى حتى اطمأنت إلى دخلى ، والتى أصبح صباحها فأعلنت قرارى لزوجتى قبل أن تقوم عن الطعام .

وتعقدت الأمور لأننى كنت جالسا على أحد المشارب وأمامى « شوب » من البيرة ، وشرد خاطرى فبدأت أرقب المارين فإذا بكل سائر بحث خطاه إلى غاية مقصودة ، حتى المتسكعين والمتسكعات أصبح بطؤهم غاية .. وذكرنى الشارع الممتد أمامى بجياتنا وغاياتنا ، فأخذت أفحص أمرى فلم أجدلى غاية .. كنت أكدح من أجل ناس لا يذكرون بيتى وأنا حى ، فكيف يذكرون قبرى وأنا ميت ؟ ولا يزورونى وأنا سليم فكيف يعودوننى وأنا مريض ؟ .. وأحسست حرارة الشوق إلى النسل حتى هممت أن أقبل كل طفل يمر بى . ثم استعدت حلقات هذه المشكلة بينى وبين زوجتى .. ثم اتخذت قرارا فحواه أنه لا داعى للتعيب .. نعم لا داعى له ..

وأعلنت هذا القرار قبل أن تقوم عن مائدة الفطور ، فكأننى أعلنت حربا قبل أن أعلن التعبئة أو أبنى الخائف .

وكان فى زوجتى بقية شباب تنبئ عن ماض عريق . وعلى الرغم من أنها لا تملك اليوم إلا هذه « البقية » فقد أفهمتنى بتصرفات صامته أن

« البقية » أحلى بكثير من رأس مال جمال كامل تتحلى به بعض الفتيات . وأنت تعلم أن القاعدة المقررة في الزواج أن تكون المرأة أصغر من الرجل .. يتزوجان ثم يسيران معا في طريق العشرة ، ويلعب الحظ دوره فيصيب المرأة ما يجعلها تفقد حيويتها قبل زوجها ، أو يصيب الرجل ما يجعله يفقد حيويته قبل زوجته . وكثيرا ما يقع الأخير .. وقد كنت أنا من هذا الكثير .

وكان برنامجي اليومي بعد اعتزالي للخدمة هو أن أخرج في الضحى متأبطا صحف الصباح ومجلة أو مجلتين بينهما كتاب ، وأخذ سمتى إلى المشرب الذى تعودت أن أتردد عليه فأقرأ أو أراقب الطريق . حتى إذا حان وقت الغداء عدت فتناولت طعامى ثم أويت مباشرة إلى الفراش ، حتى إذا دخل الليل خرجت مرة أخرى إلى مقهى غير مقهى الصباح ، فالتقى ببعض أصدقاء أقطع معهم شطرا من الليل في السمر أو لعب النرد ، فإذا ما سمعت عدت أدراجى إلى البيت لأنام .

قلما تتخلف هذه الحاجات إلا إذا تخللها طارئ كالذهاب إلى السينما أو التعزية في فريد أو شهود إحدى حفلات الزواج ، ولا شيء بعد هذا . وإذا عدت إلى البيت بعد انقضاء الهزيع الأول أضعت بقية ليلي في مخدعى على الوجه الذى أشتيه .

غير أن الجزء الأخير من برنامجي تطرق إليه الخلل بشكل مفرع . قلما كنت أجدها نائمة عند عودتى ، بل كنت أرى فيها امرأة تنتظر عودة الغائب .. كل شيء في وجهها ينادى معلنا أنه ليس لنا من لذة الدنيا إلا طيب العشرة .. « لا خلف ولا تلف » ولا صراخ صغير ولا مطالب تعكر علينا هدوء الليل .. وكان طبعيا أن أستجيب لها ،

معاندا إن ظننت بها الظنون ، أو عاطفا إن اعتبرتها امرأة تحاول أن تحتفظ  
برجل لا يربطه بها إلا هذه العلاقة .

لكننى شعرت على مر الزمن بشيء يكاد يكون سوعية فزحزحتها إلى  
منطقة أخرى من قلبى .. إلى حيث يقيم الورثة المتربصون الذين لم يتفقا  
على شيء إلا على لعنتى فى التراب ..

واتخذت المسألة وضعا عكسيا فى الليالى التالية بعد عودتى إلى البيت ،  
وطال علينا المدى ونحن متهاجران حتى ناقشنا الموضوع ذات ليلة فثارت  
العاصفة مرة أخرى ، وكانت ذات صراخ ودموع كلفتنى كثيرا حتى  
استطعت أن أعيد كل شيء إلى ما كان عليه ..

وهكذا مشت سفينتنا تتخبط ، لا تسوقها ريح رخاء ، فإما ركود  
وإما عواصف . لكن الذى عزانى عن بلائى أننى كنت قليل المكث فى  
البيت ، فما كنت أقيم فيه إلا نائما ، ثم انتهت فجأة على حادث غير  
متوقع ..

كانت صحتها تسوء يوما بعد يوم ، والطعام لا يستقر فى جوفها إلا  
قليلا حتى بدت شاحبة هزيلة غائرة العينين ، وعزوت هذا أول الأمر إلى  
طول تفكيرها فى سوء معاملتى لها بالنسبة لماض طويل جميل ، لكنها قالت  
لى وعلى شفيتها ابتسامة غامضة :

— يمكن .

— يمكن إليه ؟

— يمكن يكون ده بشارير الحمل .

فتنهدت فى ارتياح وقمت فقبلتها . ثم تنهدت فى غير ارتياح كأنما أنفى  
على صدرى حمل ثقيل . ولم أترث حتى تناوشنى الأفكار وتنهشنى

الوساوس ، فأكملت لبس ثيابي وعلقت عصاي في ذراعي وأخذت طريقي إلى المشرب حيث جلست أراقب الطريق وأمامي « شوب » من البيرة .

\* \* \*

في حياتنا مناطق يجب أن تبقى في ظلام . والويل كل الويل لمن يسلط عليها الأضواء بيديه أو لمن ترسل له المقادير شعاعا من الخارج يضيئها على الرغم منه ..

وقد ألفت المقادير شعاعا على حياة زوجتي لكنه ضعيف ، لم يجعلها في نور ولم يتركها في ظلام .. وهناك حوادث عادية تصبح مؤلمة إذا تخلفت عن أوقاتها المعلومة ، كعودة الزوج في غير أوقات العودة ، وكحمل زوجتي في هذه الفترة .. فأصبح ماضيها المستقيم عاجزا كل العجز عن أن يقنعني بسلامة الموقف .. ولو تقدم هذا الحادث عشر سنوات مع حاضر لها غير مستقيم ما ركبتني هذه الأوهام .. فلماذا ؟ .. انظر كيف تتلاعب بنا الحياة ..

غير أن هذا كله لم يقلل من شوقي إلى رؤية المولود حتى آن الأوان فنظرت إلى وجهه الصغير الذي لا يزال محتقنا من آثار الولادة ، وجعلت أفتش فيه عن شيء من الغريب أننى كنت أجده ثم أفقده ، ثم أجده ثم أفقده على التوالي . كانت ملاحى تبدو فيه وتغيب كما تفر من بين الأنامل حبات من الرزبق .

ثم اطمأنت بي الحياة بعد ذلك شيئا ما لأننى ألفت أن أراه في فراشي وأصبحت فترات الشك قصيرة المدى ، خصوصا بعد أن صارت أمه تحرص على إسعادى وراحتى ، وبعد أن ربطت الألفة بينى وبين الصغير

برباط تحسن شده يد الإنسانية لأنها تحافظ على نفسها بنفسها .  
 وبدأ يناغيني ويناغها ، وبدأت هي تلفت نظري إلى ملاحى فى  
 قسّمات وجهه : « انظر .. نفس الذقن المدبب .. يا حلاوة .. وكان  
 والنبي شوف العينين .. عينيك تمام .. »  
 وتنكب عليه فتوسعه ضمّا وتقيلا . أما إحساسى أنا شخصيا فقد كان  
 على اضطرابه كالصورة التى تلتقطها يد مرتعشة .  
 كان حنوى عليه ممزوجا بعطف وشفقة كالتى نحسها نحو الضعيف أو  
 الغريب ، لكنه على الرغم من كل شيء ملأ علينا فراغ بيتنا ، بصحته  
 وسقمه ومناغاته وصمته وخوفنا عليه من تغير الفصول . ثم إنه أنسانى  
 الورثة إلى حد بعيد فصرت أتردد على المشرب والمقهى بانتظام ورتابة  
 يشبهان عمل الآلات .  
 كانت تحبه كثيرا .. كأنما أحبته بكل قلوب الأمهات .  
 أحبته ابنا .. وحاميا .. وكاسبا ، لأنه سيرث مال أبيه . أحبت فيه  
 هذا جميعه فكانت تنسى نفسها وهى تناغيه حتى تنقلب وكأنها عذراء  
 شاعرة تناجى حبيبها تحت ضوء القمر .  
 ودخلت عليها مخدعها ذات صباح فرأيتها تقبله وتحتضنه وتناغيه  
 قائلة له : « آه .. يا جميل .. يا شبه حبيبى » .. وهى تقلب رأسها ذات  
 اليمين وذات الشمال فى حركة ساكرة .  
 رجعت بظهرى خارجا من الغرفة دون أن تشعر بى ، كأن هذه  
 الكلمات قد لطمتنى على خدى . وارتديت ملابسى وخرجت وظل أثر  
 ذاك الكلام مرافقا لى طول النهار حتى عدت فى المساء فسألت عن الوليد  
 النائم ، ودخلت عليه وحدى لأفحص ملامحه .. مسكين ..!

وطبيعى أننى لم أصل إلى نتيجة . وتمنيت أن أملك قلبى لأصب له فيه الحب على الرغم من أى شىء .. لأرتاح ..  
وثارت الكلمة فى نفسى عدة مرات ونحن فى ظلام المخدع أنا وهى ،  
ففعلت فى جسمى ما يفعله الماء وإن فعلت فى القلب أشد من حريق  
النار . وهممت أن أشرح لها وساوسى وأسألها عن ذلك الحبيب فأيقنت  
أنها ستجيب مؤكدة أنها تعينى ، ثم .. ثم تثور العاصفة . فآثرت أن أغمد  
أحشائى على السكين .. وأسكت ..

وبلغ الطفل عامين وأجاد كلمة «بابا» وكان يقولها مخلصا متأنقا جادا .  
وكنت أتقبلها منه بشك كثير .. كان خصما بريئا ، ضعيفا ، غافلا ،  
لا يشعر أن بينى وبينه ظل خصومة ، وكثيرا ما حز هذا فى نفسى . لكننى  
كنت أعالج ألمى فى صمت عميق راجيا أن يبرأ قبل أن يحس به أحد .  
وكثيرا ما كان يقاسمنى الشيكولاتة التى تقدم إليه . يقضم منها قضمة  
ثم يدسها فى فمى فأخذ منها بمقدم أسناني وأنا أفحص وجهه الباسم ،  
وأرثى للإنسانية ذات المشاكل ، ولعالمنا المعقد المثقل بالقوانين المرهق  
بالمسئوليات .

ثم أصبح بارعا — دون أن يشعر — فى استنباط ودى كلما أوشك أن  
يغيض . وكنت أقبله فى ساعات الطمأنينة قبلات عميقة طويلة ممدودة  
كأنها كفارة عن هواجس النفس ، حتى بلغ أربعة أعوام من العمر ..  
فاستوت ملاحه بريفة جميلة تحفز الشفاه على أن تلتصقا . ويمس الورثة  
فانصرفوا إلى شئونهم جادين فلم يعودوا يرقبون شبابيك بيوتى وهم مارون  
متسائلين فى ضمائرهم عن اليوم الموعد ..

وفى إحدى ليالى مايو استيقظ من نومه يطلب ماء .. وصرخت أمه  
وهى تقدم إليه الكوب لأنها أحست حرارة جسمه . لكننى هونت عليها  
الأمر ، فكل الأطفال يمرضون .. وكلهم يبرءون .. لا تجزعى  
يا سيدتى ..

لكن الطبيب أشار بنقله إلى أحد المستشفيات لأن الحمى تحتاج إلى  
تمريض دقيق . وامتثلنا .. وانتقلت أمه معه وكانت فى ذلك المساء شعنا  
غبراء لم يمسس شعرها ماء ولا مشط حتى بدا جافا كأنه خيوط الليف ،  
وحتى بدت هى كأنها أحوج منه إلى طبيب .  
وأقمت فى البيت وحدى ..

كنت أقضى معهما بياض النهار وجزءا من الليل ثم أعود . وأتاحت لى  
هذه الحادثة أن أراقب الفراشين الخالين كل ليلة فى حجرة الأم وأدمن  
إليهما النظر كأننى أفحص شيئا . ويطول لى الأمر حتى أفيق على  
دموعى .. إننى حائر ..

\* \* \*

أصدق الأحكام أو أكثرها اعتدالا هى التى نصدرها على خصومنا  
وهم بعيدون عنا ، ومن أجل هذا كان الموت ملغى الخصومات ، إلا عند  
كل خسيس .

وأحببت الصغير وتمنيت لو فديته بكل شيء .. ليأخذ الورثة البيتين  
وليقيه لنا الله .. وأنا مستعد أن أكدح من جديد من أجله حتى آخر  
العمر .. وأن أتنازل عن ملذاتي جميعا لأوفر ما يكفل له السعادة .  
وقضيت ليلتى فى فراش الأم فى الحجرة الخالية ، وتركت النور مشعلا  
لأنظر إلى فراشه كلما تيقظت .. لكن الأحلام الكريهة تزاحمت على حتى



إذا رأيت وجه الصباح تنفست كأنى نجوت من الغرق . وقدمت لى الخادمة فنجانا من القهوة لم يصحبه طعام ولا شراب آخر قبل أن ألبس ثيابى وأعلق العصا فى ذراعى آخذاً طريقى إلى المستشفى ..

وقضيت هناك بياض اليوم وجزءاً من سواد الليل .. كانت هناك معركة .. الحالة متحرجة جداً . كان فى حالة طيبة ساعة العصر ، فلما زحف الظلام زحفت عليه المخاطر . غيبوبة ونبض ضعيل كدقات الساعة قبل أن يفرغ الزمبلك . وكنا نعجب كيف أن الناس لا يحسون فداحة أمرنا خصوصاً الأطباء والأمهات اللاتي يزغردن وهن خارجات بأبنائهن .

أما هى فقد كانت بعيدة عنا .. كانت مشغولة بشعرها وثوبها وجلدها تمزق منه ما استطاعت . وكان دعاؤها قليلاً كأنها يئست من السماء . أما أنا فقد كنت أتملى الحياة الذابلة والملاح المدبرة التى تلم أذيالها قبل أن تفر من على وجهه .. وجه ابنى ..

أستطيع أن أقول : ابنى .. لأننى رأيت قسماق واضحة فيه وهو يموت .. قد يكون ذلك خيالا ولكننى لن أستطيع أن أفر من آثاره . ولثمت خديه الغائرين اللذين كأنما ضغطا بين سبابة وإبهام فتخلفت فيهما حفرتان من أثر الأصابع . ثم سال الدمع غلى وجهى .

أنا اليوم أستنجد بالشك القديم لأصنع منه ترياقا لجراحى ، ولكننى دفنت الشك معه فى لحده . وأنا اليوم لا أعبأ بالورثة .. ولا أفكر فى غاية السعى على الأرض كما كنت أفكر فى الحياة كلها .. أصبحت لا تستحق .. وحتى التفكير نفسه أصبحت لا أركن إليه فعمدت إلى الفرار منه . لذلك غمرت برنامجى اليوم فهجرت المشرب والمقهى

— ١٦ —

والأصدقاء ، فلا سمر ولا نقاش ولا لعب . لا أريد أن أفكر .. ولا أن  
أذكر أخطائي ..

نعم أخطائي .. لأن أخطاءنا هي أكثر الحقائق فاعلية في حياتنا . أما  
الصواب فإننا ننعيم بثمراته فتلهينا ثمراته عنه .

---

## الراية البيضاء

كانت منهكة في قراءة قصة بوليسية وهى متهاكة على أحد المقاعد ،  
جامعة فوق ساقها أذيال روب حريرى هادئ اللون فى لون النبيذ .  
ولم يقطع عليها قراءتها شئ بتاتا فى ذلك الضحى ، حتى ابنها الصغير  
ذو الستة شهور كان نائما ، وطال استغراقه فى النوم هذا الصباح كأنما  
ليتيح لها فرصة .

وكانت تكف عن القراءة بين حين وحين لتأمل ما قرأت بمعظم  
شعورها ، تاركة بقاياها عالقة بلوحة زيتية معلقة على الحائط تمثل صيادا  
يحمل شبكة .

وما لبثت أن وضعت الكتاب على منضدة قريبة من يدها وفتحت عينها  
فى دهشة ، وشهقت وحدها فى تعجب من النهاية التى صب فيها مجرى  
الحوادث ، ثم ضحكت ثم سرحت تتساءل :  
— ولماذا يسلم نفسه !؟ هذا غريب .

كان رجال الشرطة يضيقون الخناق على رجل تدل القرائن على أنه  
القاتل ، خصوصا لأن مصلحة تعود عليه من هذه الجريمة لأنه سيرث .  
وفجأة يتقدم إلى رجال الشرطة شاب فى مقتبل العمر تبدو عليه هيئة  
الصناع فيعترف بأنه القاتل . وقد قتل ابن المريكز ووارثه الوحيد انتقاما  
للشرف . لأن ابن المريكز غرر بأخته حين لقيها يوما عند مدخل الغابة  
وسلبها عرضها ..

ثم توقفت أفكارها .. وأخذت نظراتها تجول فى قطع الأثاث من حولها  
( حلم آخر الليل )

حتى وقعت عينها على الصورة الزيتية المعلقة على الحائط .. صورة الصياد والشبكة ، فذكرت شيئا .

ذكرت أنها كانت راجعة من الخارج عصر يوم من الأيام وخلفها خادمتها تحمل وليدها الصغير ، وكانت هذه الزوجة في زينة من شبابها وثيابها ، فإذا بوجه مستدير أبيض لشاب طويل لامع الشعر يلتقي بها في مرور عابر يلقى إليها بابتسامة ثم يمضي . لكنها ابتسامة غريبة قوية جريئة كأنها مبنية على أساس ، كأنها ليست الأولى ، كأنها ولدت بعد تبادل الابتسامات عدة مرات ، وهذا ما لم يحدث طبعاً .

وألقت الزوجة على خادمتها نظرة من فوق كتفها وهي سائرة لتعرف إن كانت لاحظت شيئا ، فوجدتها مائلة العنق نحو شيء تتأمله ..

وأخذها من بين التأملات والصور بكاء الطفل .. بكاء اليقظة من النوم . واهتز قلبها بعنف لذلك لهذا البكاء الغريزي المتوارث الذي يطلب الأطفال به أمهاتهم في أول أعمارهم ويطلبون به الغذاء . ووضعت في حجرها وأعطته ثديها ونظرت إلى بياض الاثنين .

ثم حانت منها التفاتة إلى الشباك المفتوح في حجرتها ، ومن خلاله رأت سطح البيت المقابل والغرفة القائمة في إحدى الزوايا والشباك المفتوح فيها كذلك . ومن خلال الشباك الثاني رأت وجهها .. كان هو الوجه المستدير الأبيض الذي ألقي إليها بابتسامة عصر يوم .

وأحست أنه يتأملها بإصرار وعلى مهل وفي رزانة ، وكأنما كان على شفثيه عبر الحارة تلك البسمة التي كأنها بنيت على أساس شيء خطير جدا .. لا يشك أحد حين يراه يفعل هكذا أن بينه وبينها علاقة .

« يا له من رقيق .. أعوذ بالله !! »

هكذا قالت في نفسها ، ثم قامت وأسدت ستارا .

\* \* \*

كان ذلك أول عهدهما بهذا الوجه المستدير .. المقابل لها .  
لا شيء يوصف به إلا أنه « رقيق » ، أما الاستدارة والبياض  
والابتسامة الثابتة على الشفتين كأنها بنيت على أساس ، فذلك لا يهم .  
على أن عهدهما بالحجرة المقابلة أنها كانت خالية ، غير صالحة  
للسكنى ، مهملة نصف خراب .. لكن الزوجة حين غابت عن القاهرة  
لمدة شهر وعادت لاحظت أن يد العمران قد امتدت إليها وجددتها ، لأن  
الحرب كانت تهدم في مكان وتبنى في مكان .

ثم لمع فيها النور ذات مساء وانفتح عن النافذة شيش متهالك قديم ،  
وأطل منه وجه امرأة يبدو عليها أنها زوجة فقيرة إن لم تكن خادما . لكن  
السيدة وجدت نفسها بعد ذلك مشغولة بأن تربط بين صاحب الوجه  
المستدير المترف وبين وجه هذه المرأة .. ولم تصل إلى نتيجة فنسيت الموضوع .  
ثم حدث ما حدث من قبل ..

انهمكت ذات يوم في القراءة وهي متهالكة على أحد المقاعد ، والطفل  
نائم وصورة الصياد أمام عينيها ، وحول ساقها أذيال روب هادئ اللون في  
لون النييد . ووقعت عيناها على الصورة فتذكرت أشياء متتابعة :  
قتل ابن المركيز . القبض على شاب . شاب آخر يسلم نفسه . الوجه  
المستدير . الغرفة المهملة ..

فقلت في نفسي : ما هذا ؟ لماذا يسلم الناس أنفسهم ؟  
ولما كنا دائما نوازن بين شعورنا وشعور غيرنا خصوصا في المتشابه منها ، فقد  
أخذت الزوجة توازن بين وجه ووجه ، وابتسامة وابتسامة ، وشعر

وشعر . تلك لرجل يرقد إلى جنبها كل ليلة وتلك لرجل لا تعرف عنه  
إلا المظاهر .

وبكى الطفل مرة أو مرتين في الفراش داخل الحجرة ، كأنه حلم أن  
الشدى خطف منه ، ثم نام ثانيا واستغرقت أمه في الفكرة . ولم تدرك من  
الوقت مر عليها ؟ وكل شيء من حولها هادئ كأنه يعاونها على ما كانت  
فيه .. حتى دق جرس الباب .

كانت الخادمة في الخارج فقامت هي وفتحت الباب ، لكنها ردت ثانيا  
بحركة لا دخل للإرادة فيها ، وكل يد على مصراع . ولم تتكلم ولم يتكلم  
الواقف بل كان يبعث إليها بالابتسامة الثابتة المألوفة الواقفة على الشفتين  
كأنها مبنية على أساس . والوقت ضحى واليوم يوم عمل والرجال ليسوا  
في البيوت ، فحاذا يريد هذا الشاب ؟ وفجأة سمعته يقول : « عداد النور  
من فضلك » . ففطنت إلى أوراق تحت إبطه فأخلت له الطريق إلى حيث  
نظر بقوامه الفارع إلى الجهاز الأسود المثبت في الركن . وألقى على  
وجهها المحمر وهو في طريقه إلى الباب نظرة تقول كلاما .. وانحنى  
بالتحية ثم استقام فوجدت على شفثيه نفس الابتسامة .

\* \* \*

قالت تعاتب نفسها بعد انصرافه :

— أليس من الجائز أن تكون « لعبة » من نوع سخيف ومن فكر  
سخيف ؟ لماذا لم أسأله إثبات شخصيته ؟ لماذا ؟

ثم رجعت وناقشت هذه الفكرة :

وإذا طلبت منه تحقيق شخصيته فمعنى ذلك أنني أشك فيه .. ومعنى  
ذلك أنني منتبهة إليه .. ثم هزت كتفها .

وعلق بصرها بالصياد والشبكة ، وزرقة الماء تحت قدميه .. والأفق الغامض .. البعيد .. المجهول .. والقصة البوليسية . وابن المركيز . والقاتل الذى سلّم نفسه .. حتى بكى الطفل !..

ولما جاء المساء وجدت نفسها تراقب شباكه وهى جالسة فى النور . كانت فى الحقيقة لا تحس شيئا ولا تريد شيئا . لكن جوارحنا كثيرا ما تؤدى حركات تنكرها عقولنا كما تنظر العينان إلى ما لا نرضاه فنغطينها بأكفنا !

ورأته يتخايل عند الشباك . يقرب ثم يغيب . ثم رآته يجر كرسيه ويجلس ليحس طراوة الليل ، فقامت من فورها وأسدت ستارا ! ثم رجعت فجلست ، ثم قامت فأطفأت النور ، ثم عادت فجلست على السرير وظلت تراقب .

زوجها يرقد فى حجرة أخرى بعد مضى علم على زواجهما ، لأنه لا يطيق أن يسمع فى الليل صرخة طفل .

على أن ذلك خارج عن الموضوع .. وفى اللحظة التى انطفأ فيها نور حجرتها غاب الجالس جنب الشباك دقيقة ثم رجع .. وبدأ نوره لعينها أكثر سطوعا لأنها فى الظلام . ثم أطفأ مصباحه .

وهمت أن تستلقى فى الفراش لكن شيئا استوقف نظرها . رأت نور عود من الكبريت يلمع على مقربة من وجهه فظنت أنه يشعل سيجارة ، لكنها رآته يشعل شمعة ويضعها على منضدة تستطيع أن تراها ويجلس هو إلى جوار المنضدة .

عرفت أن النور قد انقطع فى الحى فقامت لتجرب مصباحها وتعد

عدتها لمفاجآت الطفل ، لكنها فوجئت بأن النور غير مقطوع .  
ورآته ينظر نحو غرفتها قبل أن تطفئ نورها ثانيا ، والشمعة أمامه وهو  
مستغرق في الضحك لأنه أقلقها . وحين أوت إلى فراشها تذكرت أحد  
جيرانها القدامى من التلاميذ ، كان يعكس أشعة الشمس على غرفتها بمرآة  
صغيرة .

ورقدت منصرفة عما يفعل ، لكنها عادت فجلست في الفراش لترى  
ماذا يفعل .

ومن لعب الشمعة الموقدة رأته يشعل شمعة أخرى وعيناه تنظران نحوها  
في الظلمة وعلى فمه ابتسامة . ثم نصب الثانية على المتضدة إلى جانب  
الأولى فرأت لعب شمعتين .

قالت تسأل نفسها :

— وما مغزى هذا ؟

وبعد ثوان رفع الشمعة الأولى وأدى لعبها من وجهه كأنه يتأمله ، ثم  
نفخها فأطفأها ، ثم أمالها على المشتعلة فأشعلها منها ثم ثبتها في مكانها من  
جديد .. ونظر نحو شباكها ..

كانت تقول في نفسها :

— وما معنى هذا ؟

وبعد ثوان رفع الشمعة وأدى لعبها من وجهه ثم أطفأها ، ثم أشعلها  
وثبتها في مكانها كما فعل بأختها من قبل . ونظر نحو الشباك وهو يتسم .  
وكانت لا تزال تقول في نفسها :

— وما مغزى هذا ؟

وحين استغرقت في النوم كانت تتراقص أمام بصرها في الظلام مرآة في



أشعة الشمس وشمعة تشعل من شمعة .  
 لكن ذلك حال يطول ولا بد من وضع حد له . لا بد أن نختاط في  
 يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون وإلا كنا مسئولين عما يحدث .  
 كانت تعرف هذا جيدا وكانت شديدة الإيمان به .  
 وترقبت المساء التالى لترى ماذا سيحدث . كانت النافذة مقفلة  
 والحجرة ساكنة ولا شيء إلا الظلام . وأحست كأنها ترقبه فعللت ذلك  
 بأننا قد نرقب ما نكره . ولمع النور من وراء الشيش المتباعد الوحدات  
 المتكسر بعض أجزائه ، ثم انفتحت المصاريع والوقت متأخر . وجلس إلى  
 المنضدة فأكل وهو يتلفت كأنه شارد أو كأنه لم يتخلص من بقايا فكرة ،  
 أو كأن الظلام المخيم على غرفة جارته لم يشجعه أن يفعل شيئا .  
 وخطر ببالها أنه لا يعرف إذا ما كانت يقظة أو نائمة، فقامت وأشعلت  
 النور وذهبت إلى دورة المياه ثم عادت ، ثم أطفأتها وجلست في الفراش .  
 وبعد مدة بدأ يشعل شمعة من شمعة لاويا عنقه نحو الشباك . وصممت على  
 أن تدعو زوجها ليرى هذا ، فخرجت من مخدعها قاصدة إليه حتى نسيت أن  
 تلبس في رجلها شيئا ، وحين فتحت عليه بابه استيقظ هاتفا :

— سميرة !

— نعم . أنا . آسفة جدا . حسبتك تنادينى فقد سمعت دقة على  
 الحائط الذى يفصل بين حجرتينا .

— بنت حلال تعالى ..

وانقضت الليلة بينهما على الوجه المألوف ، ومرت أيام كانت أشبه  
 بليلى الهدنة مشحونة بالقلق والملل والتطلع .. حتى كان ضحى يوم من  
 الأيام .

والطفل نائم ، والخادمة فى مستشفى الأنكلستوما ، والسيدة منهمكة فى القراءة متهاكة على المقعد وعلى ساقها أذيال روب هادئ اللون ، وفى تجاهها صورة الصياد ...

ودق الجرس دقة عميقة فنملت أطرافها ، وألقت نظرة على الصياد والشبكة ، والبحر والأفق الغامض قبل أن تفتح الباب . وكان قد مضى شهر تماما ورجعت الأيام من جديد فمثل أمامها بوجهه المستدير وابتسامته الثابتة على شفثيه كأنها مبنية على أساس .. قديم .. قديم جدا !! وكان فى باطنها أشياء كثيرة وهى تخلى له الطريق ليذهب إلى العداد . الجهاز الأسود القائم ليحصى عليهم خيوط النور . وجعل يدندن كما يفعل الصراف وهو يجمع الأرقام ، ثم قال لها :

— ياه .. ستين كيلو ، لازم بتسهروا كثير !!  
فلم تردّ . وكانت تتلفت كأنها تبحث عن أحد ولكن الطمأنينة التى ظلمت وجهه خففت قلقها . ثم طلب كوبا من الماء — إن كانت تسمح — فأشارت إلى الصنبور ثم قالت أخيرا له وهو خارج بصوت فيه رعشة الانفعال :

— تسمح ؟

— نعم !

— تسمح تقول لى .. ما معنى هذه الأعمال ؟  
فأجاب فى تجاهل :

— إننى أودى وظيفتى يا سيدتى !

فنظرت وكأنها تبارزه واستطردت :

— يا شيخ ؟! وإشعال شمعة من شمعة وظيفة ؟!

— ٢٥ —

فقال مداعبا :

— أأست موظفا فى شركة النور ؟

— ...

وظلّت تنظر إليه فى شروء وغضب وعلى الخدين حمرة كأنها تفاح ، حتى فارق البسطة وأخذ يهبط درجات السلم . وصممت على أن تقول لزوجها بعد الغداء مباشرة .. لا بدّ من يد تمتد إلى الذين يزولون حتى ينهضوا من جديد .

واستغرقتهما مشكلة ديوانية وهما على الغداء كان الزوج يقصصها عليها .. ثم أوى إلى غرفته بعد ذلك مباشرة ونامت هى كما نام ، وقامت وقت العصر بنفس هادئة نوعا ولكنها قررت أن تعمل شيئا آخر . وفى صباح اليوم التالى كانت غرفة المائدة مكان غرفة نومها وغرفة نومها مكان غرفة المائدة . فبعدت بذلك عن شباكه . إنها تعرف تماما ما ينبغى أن تعمل .. لا بدّ أن نحتاط فى يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون وإلا كنا مسئولين عما يحدث !!

وفى ظلمة إحدى الليالى التالية بكى الطفل فأعطته ثديها وهو فى حضنها ، ورضع حتى نام فسحبته من فمه ثم قامت إلى دورة المياه . ومن هناك وجدت نفسها مدفوعة إلى غرفة المائدة وفتحت شباكها برفق وهدوء بيد مضطربة وقلب خافق .. تماما كأنها تسرق أو تفتح باب مخدع غريب على رجل نائم .

ووقع بصرها على الشباك ورأته إلى جواره . كان ساهرا يقرأ .. وكان يهز رأسه ويسكت ويشرد وينظر نحو بيتها كأنه يطلب منها أن تشاركه المعانى والأفكار .

وأحست جرّ ششبب على البلاط ! ووقع أقدام ثقيلة تنتقل في الصالة ، وكان زوجها في طريقه إلى دورة المياه هو الآخر . وحين وصل إلى غايته كانت هي تتسلل ببطء إلى حجرة نومها ، ولما دخلت مخدعها أحست أنها عملت أمرا غير عادى .

وسألت زوجها ذات يوم عن علامات الحب ، وكان ذلك بمناسبة . كانا يستعيدان ما فات والتاريخ القديم منذ عامين أيام كانا خطيبين . وكثير من الحوادث يفقد رونقه سرعة ويستحيل إلى شيء قديم . ولما سألته وهي تبتسم عن علامات الحب ، أجابها وكأنه مشغول بمجد الأمور : « لقد نسينا هذه التفاهات » .

وحدث تغيير في المنزل مرة أخرى . تحولت حجرة المائدة إلى حجرة نوم وتحولت حجرة النوم إلى حجرة مائدة ، وظهر لعينها شباكه من جديد كأنه منارة .

وبوغت حين رأى ما حدث ، وأحضر من فوره الشمعتين وجعل يشعل .. كان يخيل إليها أنه سيأكل اللهب حين يدنى الشمعة من فمه ليطفئها ، فتذكرت أن هناك ناسا يأكلون اللهب ويلبسون النار ويسكنون جهنم ، وهم مع ذلك يحسون بالنشوة !

واسترخت أهدابها فاستغرقت في النوم ، وكانت تتخيل أمام بصرها في الظلام مرآة في أشعة الشمس وشمعة تشعل من شمعة .

ولقيها في الطريق فسار إلى جوارها يبتسم في صمت ، فقالت له :  
— ماذا تريد منى ؟

ولم يكن شرورها غاضبا وإن كان على الخدين حمرة كأنها تفاح .  
فأجابها بلطافة :

— ٢٧ —

— أنا أريد أن أسألك نفس السؤال .

فنظرت مستنكرة ما يقول ، فاستطرد بنفس اللطافة :

— إذن .. فليسأل كل منا صاحبه ماذا يريد صاحبه ؟

فلم تردّ . فهمس :

— سؤال محير !

فأطرقت نحو الأرض .

فهمس : والجواب عن السؤال أكثر تعقداً وتحيراً .

ثم سكت . وسمع كل منهما وقع الأقدام على الأرض ، والخادمة من ورائهما على بعد غير بعيد ، ثم قال :

— في الدنيا مساكين لا يعرفون ما يريدون ، وإن عرفوا عجزوا عن أن يفعلوا شيئاً .

فلم تردّ فاستطرد :

— على أننا سنلتقى قريباً ..

فنظرت بعينين مفتوحتين فيهما فزع وقلق مغلفين بحب لا يفصح .

فهز رأسه وهو يخلق فيها ولم يتكلم . ثم قال بعد برهة :

— سنكشف عن العداد بعد يوم واحد .. وداعاً ..

لكنها لم ترد عليه . وقبل عودتها إلى البيت اشترت للخادمة جلباباً

ومنديلاً وقدمت إليها وقت الغداء قطعة كبيرة من اللحم .

ولم يبق إلا يوم واحد ، وكانت تنتظر . لم تكن مصممة على أمر . وفي

الليل الذي سيأتي بعده صبح ربما وقعت فيه حوادث كانت تحس كأن

جيشاً يزحف نحوها وهى وحيدة بلا سلاح ، وتمنت لو وجدت يداً تمتد

إليها بالمعونة .

وكانت تعلم أنه لا بد أن نخطأ في يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون .  
 لكن .. خلق من أجلنا الضعف !! .  
 وخرج الرجل ، وذهبت الخادمة إلى مستشفى الأنكلستوما ،  
 وجلست هي حيث تعودت أن تجلس فوق بصرها على صورة الصياد  
 والشبكة ، والبحر ، والأفق الغامض فتذكرت ما فات ..  
 ودق الجرس فنملت أطرافها . لكنها فتحت لترى على الباب وجهه  
 المستدير وبسمته الثابتة على شفتيه . واتجه إلى العداد ثم عاد إليها وكانت  
 تلهث لا تتكلم والباب موصد وصورة قاتل ابن المركيز الذي سلم نفسه  
 دون أن يبحث عنه أحد ماثلة في ذهنها .. ولما احتواها بين ذراعيه وبادلته  
 القبل بعد برهة ، فهمت لماذا كان يشعل شمعة من شمعة !  
 وبعد أن ذهبت السكره ورأت نفسها وحدها ، انفجرت تبكي لأنها  
 رفعت الراية البيضاء في ذلك الضحى بيد خالية من الإرادة .  
 ولم يعد يقلقها بعد ذلك إلا سؤال كانت تلح على قلبها أن يجيبها عنه  
 بصراحة . هذا السؤال هو : « هل تستطيع أن تتراجع لتصبح امرأة  
 نصف شريفة ؟ » .

## سقف من الزجاج

كانت عيادتي مزدحمة بالمرضى ، والوقت صيفا ، والدنيا حرا ، وميعاد الغداء قد فات ، وزوجتي في البيت تكلمني بالتليفون كل نصف ساعة لتسألني : « هل ستأخر كثيرا ؟ .. إن الطعام على المائدة ، ونحن بالانتظار » .

و كنت مرهقا في الواقع ، ووددت بيني وبين نفسي أن أحذف من عملي في هذا اليوم شيئا هو استماعي بنفس مطمئنة إلى ثثرة المرضى الخارجة عن الموضوع .. الخارجة عن كسل الكبد وحموضة المعدة وتمدد الطحال ، ولكنني لا أستطيع ، لأن استماعي إلى مرضاي بكرم وابتسام كان من أهم أسباب نجاحي .

والمرضى « رجل يعترف » .. شخص يريد أن يتخفف من أوهام تزعج نفسه كما يتخفف المذنب من آلام تقلق روحه ..

أما اليوم فقد كنت متعبا جدا ، كنت أريد أن آكل وأنام كما يأكل الناس وينامون ، لكن حجرتي الانتظار في عيادتي كانتا عامرتين برجال وسيدات .

وأطل على الممرض النوى بوجهه المستطيل من فتحة الباب وقال : « إن آخر سيدة في العيادة تريد أن تدخل يا دكتور » .

فأجيبته وأنا أدير قرص التليفون لأتصل بالبيت :

— من ؟

— ست منيرة ..

— دعها تدخل .

واعتدلت استعدادا للإجابات ، وزجرت معدتي لتسكت عني كما تنهر الأم ذات اللبن الشحيح طفلها الباكي بين ذراعيها وهي تعلم أنه جائع . ودخلت ست منيرة ، فطالعتني من وجهها أول كل شيء كحل وضعته في أجفانها بلطف . وجلست على كرسي مواجه في رشاقة لا تتناسب مع عودها السمين .. فبادرتها وأنا أستجمع أفكاري ويدي تعبت بخنجر من العاج تفتح به الرسائل :

— خيرا يا هانم .. هل تشعرين بمجديد ؟

— ألاحظ في هذه الأيام أني أصبحت كثيرة الأحلام .. وقد قرأت في كتاب يصدر ضمن سلسلة شهرية أن من الأحلام ما له علاقة ببعض أعضائنا ..

فضحككت ، وأحسست أن شيئا من الخجل مسح على وجهها الأسمر فأحاله إلى حمرة الفخار ، وتركها تخرج مروحة من حقيبة يدها ، واستدركت :

— لست أقصد أن أسخر من معلوماتك يا ست منيرة ، ولكن الذي يضحككني هو حرصك الشديد على الانتفاع بهذه المعلومات ، ... — الكابوس يلاحقني طول الليل يا دكتور ، أشكال فظيعة أراها فأستيقظ وأنا ألث . وربما قضيت بعض أيامي متشائمة من رؤيا مرت بي في الليلة الماضية .. كل هذا من الكبد ..

وكان يجب أن أقول لها : نعم ، هذا صحيح « وإن كان غير مؤكد » ، إن الست منيرة مريضة بالكبد فعلا ، قلت لها هذا ثم استطردت وأنا أرمقها بعطف ولطف :



— على أننى أفضل أن يمضى المرء ليله نائما بأى شكل ، لأن النوم خير من الأرق . وهناك ناس يا سيدتى يجيئون فيقسمون لنا أنهم لم يغمضوا أعينهم طول الليل .

فقلت بتدلل وطريقة توحى أنها بدأت تفقد ثقتها فى :

— لكن يا دكتور .. أنا أتكلم عن الكبد يجعل كل شيء .. عاجل لى كبدى مادام هو الذى يسبب لى كل هذه المتاعب .

إننا نجد أنفسنا مضطرين فى بعض الظروف أن نلعب مع مرضانا بالورق ، لأن المريض « مستغيث » ، والطبيب « منقذ » ، والمستغيث لا يلتبس لمنقذه عذرا ، ولا يشك فى قدرته حتى ولو كان فطريا ، ولأن المريض متعلق بالنجاة التى تعميه عن كل ضعف فىنا .. ولو كان فطريا .. كنت أحاول أن ألعب بورقة جديدة ، فطرحت مسألة « الأعصاب » جانبا ، لأنها « موضة » بدأت تشيع ، وشيوع « الموضة » معناه انتهاؤها ، فقلت لست منيرة غير صادق :

— اسمعى يا سيدتى ، فى وسع أى طبيب أن يصرف اهتمامك عن كبدك المريض إلى شيء آخر ، كأن يقول لك مثلا إن المسألة مسألة أعصاب ..

ففتحت عينها فى إعجاب حتى ظهر بياضهما مستديرا حول الحذقة السوداء ، وجرى إشراق خفيف على وجهها الأسمر الذى يحمل إشارات خمسين عاما ، ثم همست وهى تطفئ سيجارتها فى الطبقوقة :

— صحيح ؟.. إذن فأنا أعصابى سليمة .

— جدا .. كل السلامة .

فأجبتها :

— ٣٢ —

— أنت مريضة ذكية ، ونحن نفرح دائما بالأذكىاء من المرضى .  
— لماذا ؟

— لماذا ؟.. إذا كان القاتل الذكي من سوء حظ المحقق ، فإن المريض الذكي من حسن حظ الطبيب ، هذا يضلل وهذا يهدى .  
— ها . ها . ها .. هي . هي . هي ..  
وهكذا ضحكنا معا ..

وأخذت وطأة الامتحان الثقيلة تخف عن جو الحجرة ، وبدأت المريضة الملحة التي زارتني ستين مرة بين كشف واستشارة تتفاعل بما سأفعل ، ولو أن حقيقة أمرها أنها تحمل في كبدها كسلا عاديا جدا يمشی به كثير من الذين يأكلون السمن الساج . لكن ظروفها يجعلها الأطباء والمرضى معا تضخم كثيرا من التوافه حتى تزعج الطرفين .  
وكان لا بد أن أقول لها شيئا ، فقلت :

— هناك طريقة للعلاج تعطى نتائج سريعة ، لكنها .. « ومططبت شفتي » .. مضمونة . هل عندك فكرة عن شرب « المثلج » ؟ إنه لا يطفئ الظمأ ، إنما نعالج .. نعالج .. كلمة العلاج نفسها تدل على أن العمل بطيء ، ثم إننا نخاف النكسة .. النكسة العضوية يا سيدتى قد تحدث نكسة نفسية عنيفة ، مرضانا الذين يبرأون تماما ثم يعودون فيمرضون تماما ، يياسون . ولذلك فأنا حريص على أن أختار الطريق الطبيعى حتى أصل بمريضى إلى الأرض اليابسة ..  
ودق جرس التليفون ، وخيل إلى أنه غضبان ، فرددت على زوجتى قائلا :

— بالهناء والشفاء ، أعمل إليه .. زبون والله ، والله العظيم .

— ٣٣ —

وأقفلت السكة وعدت أستاذف عملى مع السيدة التى لا تشبع من  
القلق ، قالت :

— أنا أحس وأنا فى عيادتك أن أعراض المرض تزول تماما ..  
فأجبتها وأنا أضحك :

— فوقنا شقة خالية ..

فأومأت بعينها المكحولة وهزت رأسها لتقول إن هناك فرقا بين  
الشقتين ، فقلت لها :

— شكرا ، وأنا تحت أمرك ، من واجبنا أن نجيب عن كل  
ما تسألون ، وسرى أن المحادثة بدأت تنهى نفسها ، وأخذت أقفل أدراج  
المكتب وتحركت هى فى مقعدها .. فدق جرس التليفون .

قلت لمحدثى وأنا واقف :

— الآن ؟ مستحيل ، وأنا أيضا فى غاية التعب . اعدلى .. وباسم  
الإنسانية أستمهلك حتى آكل .. أنا آلة فرغ منها الزيت .. اتفقنا إذن ،  
يحرسك الله .

وخرجت وهى من ورائى ، فرأيت العيادة ساكنة ، وضجيج الترام  
يأتى إلى آذاننا من بعد ونحن نجتاز الصالة ، والممرض النوى الطويل نائم  
وهو جالس ، وهناك سيجارة نفحه بها أحد الزباين كانت تحترق وحدها  
على منضدة .

ثم أقفل من ورائنا الباب ..

فتحت لى الباب خادما صغيرة تلبس جلبابا من القطن كان أكبر من  
جسمها بكثير .

ومررت فى مدخل يدل على الإهمال ، والصالة خالية ليس فيها فرش ،

فخمنت أنه مسكن لبعض طلبة المدارس .

ثم قادتنى البنية إلى الغرفة التى ينام فيها المريض . لم يكن بابها مستقلا بل كان يفتح فى غرفة أخرى لم ألاحظ حيث اجتزتها شيئا فيها غير مكتب عادى وعدة كراس . أما فراش المريض فكان أهم ما فيه أنه يدل على الوحدة ..

برز معنى الوحدة لمخاطرى حين رأيت متقدما فى السن ، شاب شعره بنظام كأنه صبغ بالأبيض ، ولم أشم فى المكان رائحة « شريكة » ، ولا أنفاس أطفال ، فبدأ البيت كأنه وجه يحمل عينا واحدة ، لتكن جميلة ناعسة لكنها لا تسحر .

كان يدو أنه يعانى أزمة عامة لا يرجع سببها إلى شئ واحد ، فشاع فيه الاضطراب جسما وروحا ، وكان أول ما صارحنى به حين المنحيت أكشف عليه أن قال إنه خائف ، خائف من الموت .. فابتسمت وأنا أرحح الجلباب لأكشف على بطنه وأجبتة :

— لا تخف يا صديقى ، فإن الموت ليس من السهولة كما يظن الناس .

فسأل وعينه زائفتان :

— كيف يا سيدى ؟

فقلت وأنا أعد نبضاته :

— إن تسعة أشهر فى العادة كافية لأن تخلق طفلا يصلح لأن يعيش ثمانين عاما .. وإن عشرين شهرا قد تكون غير كافية بالنسبة لمريض تنشب فى جسمه معركة الحياة والموت .. الموت ليس سهلا .. دعنا من هذا ، فليس فى موضوعنا .

ووصفت له دواء ، كان بعضه الطمأنينة .. وانصرفت .  
ولاحظت وأنا خارج شيئا لم ألاحظه أثناء دخولي . كان هناك كلب  
مشدود برباط من الجلد إلى مصراع الباب الثابت ، وكان في سبات  
عميق .. راقدا على الأرض ورأسه بين رجلتيه .

\* \* \*

وفي المساء ، بعد يومين دق جرس التليفون ، والوقت متأخر نوعا وأنا  
على وشك أن أفرغ من المرضى ، ودلني المتكلم على شخصيته فعرفت أنه  
أحد جيران المريض الذى عدته في البيت ، وألح على أن أسرع لأن  
المسألة تبدو أنها خطيرة ..

وكنت على بينة من الأمر فلم يزعجنى هذا الحديث ، اللهم إلا إذا  
كان هناك ما لم يدخل في حسابى . كانت الحالة تدلّ على أنه « يتحلل » ،  
والتحلل محتاج حتما إلى زمن . وأول علامات التحلل أن كل عضو من  
أعضائه الرئيسية بدأ يكَلّ ، وبمرور الزمن يذهب التناسق كأنما تتخاصم  
الأعضاء فيدخل المريض في « الممر » المؤدى إلى الحالة الثانية .. عكس  
الحياة ..

كان هناك جديد في الموضوع حقيقة ليلة زرتة للمرة الثانية ، لأن  
الكليتين كانتا قد أعلنتا العصيان فقلّ إفرازهما عن الطبيعى .  
والشقة في الليل شديدة الكآبة ، لم يكن فيها نور .. لم يكن فيها أحد  
يؤنس مرضه لا زوجة ولا أولاد ، فبدت الوحشة متراكبة كأنها ظلام  
على سطح البحر . وإذا كنا نفزع من الموت مرة فإننا نفزع منه ألفا إذا  
شعرنا أننا نموت في الظلام .  
قلت له : لا بد من نقلك إلى مستشفى .

فأجاب في شبه هلع :

— اعمل معروف ، أنقذنى فقط .

ونحن كقواد المارك نرى غروب الأعمار بكثرة ، لكننا في بعض الأحيان نرثى لبعض الموتي .

ولم أفارق الرجل الشيخ ولبثت حتى جاءت عربة لتنقله ، وخرجت آخر الخارجين ، وألقيت على المكان نظرة طويلة فرأيت حجرات خالية وأرضا متربة والخدمة الصبية في ثوبها القطنى الواسع على جسمها وهى تمحلق في صمت ، وأخيرا .. أخيرا .. الكلب .

لم يبق بعد خروجنا في المكان سواه .. والصبية ، وطبعا حين أغلق الباب خيم السكون ، ونام الكلب على الأرض في رباطه الجلدى ، ونامت الصبية في المطبخ على « شلتها » القديمة .

\* \* \*

وكنت أقول لأحد المرضى المثقفين في هذا المساء :

— إن الطبيعة تناقشنا الحساب عن كل ما تمنحنا يا صديقى ، فإذا أعطتنا شيئا ولم نستفد به أخذته منا ، فنكون بالتالى قد نقصنا جزءا . وضحكتم ثم أمسكت القلم بيدى اليسرى لأبرهن له أنني عاجز عن الكتابة بها .. ثم عدنا فضحكنا .

وانصرف المريض ، وأطلّ علىّ المريض من فتحة الباب بوجهه النوى المستطيل وقال بلهجة فيها ملل : « ست منيرة يا دكتور .. » .

فهمست دون وعى :

— ست منيرة .. دعها تدخل ..

فدخلت ست منيرة .

— ٣٧ —

كانت شاحبة في هذه الليلة حقا ، مجهدة حقا ، كأنها مشت شوطا طويلا .

ونظرت إليها ولم أتكلم ، ومرت برهة انتظر كل منا فيها كلام صاحبه حتى قلت :

— خيرا ؟ ..

فقلت وهي مطرقة :

— خيرا ، فقط كنت أشكو من كثرة الأحلام فأصبحت أشكو من قلة النوم .

فضحكت مداعبا لأخفف الحالة :

— يعنى لا نوم ولا أحلام ..

— بالضبط .

وكانت الكلمات التى قلتها للمريض السابق لا تزال عالقة بذهنى ، حاضرة على طرف لسانى كأنها بقية مشروب ، فقلت لها :

— اسمعى يا سيدتى .

— نعم .

— كم ولدا عندك ؟

— لماذا ؟

— لماذا ؟ .. لأنه من الطبيعى أن يكون للناس أولاد .

فاحمرّ وجهها الشاحب لأن قطار الزواج كان قد فاتها ، فأدّرت الحديث بسرعة .

— لم تنامى ليلة البارحة ، أليس كذلك ؟ .. ألا تذكرين شيئا غير عادى كان فى نطاق البيت ؟

— ٣٨ —

— مطلقا ، إلا إذا كان نباح الكلاب يقلق . فى الشقة التى فوقنا ظل  
 كلب يعوى طول الليل .  
 — وأين تسكنين ؟  
 فلما أجابت أجبتها :  
 — وبات الكلب يعوى لأن صاحبه حمل مريضا أمام عينيه .  
 فعجبت لعلمى ، ثم تذكرت أننى طبيب .  
 ثم حضرتنى من جديد الكلمات العالقة بذهنى ، الباقية على طرف  
 لسانى كأنها بقية مشروب ، فقد كانت حياتها غير طبيعية وحياة جارها  
 الذى فوقها غير طبيعية كذلك ، كلاهما كان « فردا » .. لم يتزوج .  
 والطبيعة تناقشنا الحساب عن كل ما تمنحنا ، فإذا أعطتنا شيئا ولم  
 نستفد به أخذته منا ، فنكون بالتالى قد نقصنا جزءا .. أعنى أننا نمرض .  
 قلت للست منيرة :  
 — إذن فاستشيرى أحد أطباء الأعصاب .  
 — وأعود إليك ؟  
 — وعودى إلى .  
 وانصرفت .  
 وأخذت أجمع حاجاتى قبل أن أغادر العيادة وفى ذهنى صورة سقف  
 من الزجاج يفصل بين هذين المريضين ليستطيع كل أن يرى كيف يقضى  
 صاحبه سواد الليل .. لعل أحدا منهما يستطيع أن يسعد الآخر ..  
 وقلت فى نفسى : « لو تهدم السقف الذى يفصل بينهما ، لتهدمت معه  
 أسباب الشقاء الذى يسيطر على حياة كل منهما .. ولكن هيات .. لقد  
 ذهب الرجل .. مات .. »



## الشيء الممكن

أحست سعاد بوحشة شديدة في أول يوم من أيام العام الدراسي الجديد في مدرستها الثانوية . لم تكن المدرسة جديدة عليها ، بل على العكس كانت مليئة بزميلات وصديقات التقين جميعا في « الحوش » تحت ظل الأشجار المنشورة ، وتبادلن القبلات والتمنيات ، وتضاحكن ، وتعانقن . وكنّ يسكتن فجأة خلال الحديث الذي تسرد فيه ذكريات الصيف المنقضى لتقول واحدة منهن : « يا خسارة .. هكذا ببساطة تغيب عنا هذه الفتاة إلى الأبد ! »

أما هذه التي تحدثن عنها فقد كانت في بيت أبيها بعد أن انقطعت عن الدراسة ، مشغولة بشيء غير الذي يتحدث عنه زميلاتها . وصديقتها سعاد التي تصاحبها الوحشة الآن من أجلها ، تعلم قصتها بكل ما فيها ، وتعلم أنها لا تذكر لقاء الصديقات في أول يوم من أيام المدرسة إلا بالطريقة التي يذكر بها الكبار فرحة الأطفال ببذلة العيد ، فقد أصبحت مخطوبة ، وخطيبها اليوم هو حبيبها بالأمس .. وهى بعد ذلك كله ، أو قبل ذلك كله ، فتاة لها من اسمها نصيب .. وأحلامها كثيرة وطاقتها في احتمال الهموم أو الأسرار محدودة جدا !

وقد كانت سعاد مكملة لها في صداقتها . كانتا إذا اجتمعتا في بيت إحداهن سرحن في الحديث حتى تستأثر أحلام بالجزء الأكبر منه ، بل وربما كلّه ، ثم تفتيق فجأة وقد رفعت أهدابها التي يثقلها الخيال وتقول لسعاد في شبه اعتذار :

— أنا أشعر فى سلوكى معك بأنانية كبيرة .. ألا تتضايقين منى  
يا صديقتى ؟ أرجو ذلك . لكن غدا عندما أتزوج سأضع أذننى تحت  
تصرفك ! .. أقسم لك أننى سأكف عن الكلام معك على الأقل ! وعندئذ  
يأتى دورك يا حبيبتى لتكلمينى عن كل ما تشائين . على أنك بطبعك  
قليلة الكلام ! هل تدرين يا سعاد ماذا تشبهين ؟  
— لا ..

— إنك تشبهين فى نظرى مخزن المثلثة .. شئ غنى ، حنون ،  
صامت يأخذ منه المرء ما يشاء ثم يقفل بابه على الباقي حتى يعود إليه مرة .  
أخرى . هل تشعرين بمقدار حبنى فيك ؟

وبهذه الذكريات كانت سعاد تمشى وحدها فى « حوش » المدرسة بعد  
أيام ، أما أحلام فكانت تمشى بها فى مساء اليوم نفسه فى أحد شوارع  
العاصمة الكثيرة الزحام مع خطيبها ، فى طريقهما إلى زيارة أمه .  
وفى اللحظة الأولى التى يبدأ فيها فراق الأصدقاء ، يسأل كل نفسه  
ويسأل الآخر : كيف يستطيعان التغلب على الزمن وصنع النسيان ؟  
وتبدو المشكلة فى الواقع ضخمة عسيرة ، ولكن حركة التجديد  
والتعويض تقهر كل شئ وتضمن لحياتنا الاستمرار .

فما لبثت سعاد أن اندمجت فى صحنه مدرسية جديدة ، وما لبثت  
أحلام أن اندمجت فى حياتها العائلية ، وأصبحت الزيارات وأصبح اللقاء  
متناسبا تماما مع الوضع الذى آلت إليه الصديقتان .

وفى بدء العام المدرسى الجديد ، وتحت الأشجار المتناثرة فى حوش  
المدرسة نفسها ، وقفت ثلة من البنات يتضاחקن ويسلمن ويذكرن  
الصيف الذى فات . حتى قالت إحدها فجأة : « يا خسارة .. هكذا

ببساطة تغيب عنا هذه الفتاة إلى الأبد !! .

أما التي غابت في هذه المرة فقد كانت سعاد . كانت في بيت أبيها مشغولة بغير الذى تتحدث عنه البنات ، فقد أصبحت مخطوبة مشغولة بتجهيز سريع لتنتقل في أقرب فرصة إلى آخر مقار الدنيا بالنسبة للمرأة : بيت الزوجية !

وأصبحت الصديقتان زوجتين وغابت عن ذهنهما ذكريات المدرسة .. بعدت كما يبعد صدى الصوت . وأصبح حديثهما في كل لقاء متعلقا بالرجلين اللذين يخصانها ، ومن بعد ذلك يأتي الأمل في المستقبل . وفي إحدى الليالي دخلت أحلام بيت صديقتها مهمومة ، ولما استقرت بهما الجلسة لم تتحدث أحلام كعادتها عن الزواج على حب ولا عن النقص الحقيقى الذى ينجم — في نظرها — عن التقاء الزوجين بطريقة غير طريقة الحب . وأحسست صديقتها بالهم الذى يخالط نفسها ، فلما سألتها عنه أخبرتها أنها تعاني قلقا يكون مبهما أحيانا وظاهرا أحيانا .. وأن مرجع هذا القلق هو زوجها .

قالت أحلام :

— لقد مضى علينا عامان ونحن زوجان ، ومازلت أكن له طاقة من الحب أعتقد أنها أعلى بكثير مما يكنّ لى . لا تعترضنى علىّ فأنا أعلم مقدما ما ستقولين ، ستقولين إنه مثل نار المدفأة يبدأ شرارة ثم يتلهب ثم يتحول إلى جمر هادئ ، وقد يتحول إلى رماد ! كلنا يا صديقتى بما فينا ، أجساما كنا أو أرواحا ، نسلك نفس الطريق .. فأنا لا أعاتبه على شيء يتفق مع هذه القواعد . لكن الذى أحسه هو أننى مهددة في كنز .. كنز عزيز أملكه .. وهناك من يتربص له ليسرقه منى !

لقد كان زوجي يتعمد ليلة البارحة أن يثير غضبي وهو يسلم عليها .  
حقيقة أنها ابنة عمه لكنني كنت على وشك البكاء . ولما أحس بغضبي ثار  
عناده وعاد إلى ما نهيته عنه .

ثم صمتت أحلام ورفعت أهدابها الغزيرة عن عينين تنموجان  
بالعواطف ، وحملت في صديقتها مدة طويلة حتى تخيلت سعاد أنها هي  
المتهمة . وما للمانع ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك مما يدور في خلد أحلام ؟  
إنها امرأة غيور وزوجها رجل كثير التحبب ، قلبه في رقة النسيم ونقاء  
الماء ، وحين يأتي لزيارتهم تطول عندها السهرة كذلك ، وقد علقت  
أحلام على ذلك وفي دعاة خفيفة معلنة أن زوجها لا يطول جلوسه  
إلا إذا كان عندها .

وخطفتها صديقتها أحلام من أفكارها قائلة لها :  
— نحن على كل حال منقولان من العاصمة فترة لا يطول أمدنا ، لأن  
في نقله ترقية له . وكل ما يحزنني يا صديقتي أنني لن أجذك قريبة مني  
فأنت التي أمتطيع أن أبثك شكوى قلبي .  
غير أن وقع الخبر على سعاد لم يكن مؤلماً .. كانت تحس أنها بعدت حتماً  
عن مجال الشبهات في نفس صديقتها . إن هذه المشكلة لم تولد بعد ، ولكن  
أليس من الجائز أن تكون جنيينا ؟

وقبل أن تفرق الصديقتان انسكبت بينهما دمة وفاء ..  
وكانت خطابات أحلام إلى صديقتها تحمل طابع الراحة أكثر مما تحمل  
من طابع السعادة .. ثم ظهر فيها القلق مرة أخرى ، ثم لحقها الفتور ، ثم  
انقطعت . ولم تعد كل منهما تعلم عن الأخرى إلا ما يحدثها به قلبها أو  
ما تضره لها من تمنيات .

حتى كانت ليلة من الليالى .. دق جرس الباب فى شقة سعاد بالقاهرة ، ثم أعلنت الخادمة اسم السيدة أحلام . ولما التقت بها صديقتها رأت عليها أشياء أنكرتها لأول نظرة . لكنها تجاهلت كل ما رأت وجلست تسألها عن أحوالها فى بشاشتها المألوفة . وبعد قليل علمت أن شقة الخلاف بينها وبين زوجها قد اتسعت وأنها جاءت إلى القاهرة وحدها لتقيم عند أبيها ريثما تهب الريح فى اتجاه يرضيها .

ولم يكن حزنها كمدا . لم يكن حزنا صامتا يصحبه التسليم أو الدهول ، بل كان حزنا حانقا من النوع الذى يشفيه الانتقام ، وسألتها سعاد عما جد فى الأمر وهى تقهر فى نفسها تهكما خفيا يريد أن يظهر :  
— امرأة .. مرة أخرى يا صديقتى ..

— لا أكاد أجزم .. كل ما فى الأمر أني أحس أن كنز اضاع منى . لا أعرف اليد التى أخذته ، وربما يكون قد ضاع فى الهواء .. تبعثر فلم ينتفع به سوى .

وأحست سعاد وهى جالسة معها بشيء من الغرور .. غرور الربان الماهر الذى ينجو بالسفينة التالفة من شر العاصفة على حين أن غيره قد أغرق سفينته الجيدة الصنع فى البحر الهادئ .. لو أنهما تبادلتا الموقف ما استطاعت أحلام أن تعيش مع زوجها هى شهرا واحدا .  
ولما هدأت أحزان الضيفة سألتها سعاد فى حنان :

— هل أصبحت تكرهين فيه كل صفاته ؟ ألم يبق فى هذا الرجل الذى كنت تعشقين خلاله كلها ، صفة واحدة تستطيعين أن تحببها ؟  
فأجابت بياس :  
— لا . أعرف ..

— إذن فحاولى مغلصة أن تعرفى ، وستجدين فى إحدى خلالاه نقطة تبدئين منها الحب من جديد .

وضحكت أحلام فى شىء من الراحة ، ثم قامت معها إلى العشاء وعندما خلا بهما المكان مرة أخرى قالت ربة البيت :  
— اسمعى يا أحلام .. عندى قصة ، فهل ترغبين أن تسمعها ؟  
فلمعت بسمه على ثغرها الحزين ، على حين استطردت صديقته تقول لها :

كانت فى السن التى يفكر فيها الأبوان بالنيابة عن بنتهما فى العادة .  
وكانت من البيئه التى يفكر فيها الأبوان عن البنات فى العادة .  
وباختصار شديد زوّجوها من الرجل الذى اختاروه لها .  
والحياة الزوجية أشبه بطريق طويل يعترض الزوجين فيه — بين مرحلة ومرحلة — ستار بعد ستار . وكلما رفع أحدهما ستارا رأى من خلفه شيئا لم يكن يدريه .

والمهم يا صديقتى أنها منذ الليلة الأولى بعد لقائهما بزوجهما ، رأت منه كل ما تكره . أحست أنها تزوجت أداة من الأدوات ، نوعا يكاد يكون خاليا من العواطف . هو حقيقة ملء بالحياة ! لكن إذا كانت الحياة شجيرة فإن العواطف أزهارها ، وهى خلاصة إحساسنا وعطر وجودنا .  
وكانت صاحبتنا تعلم ذلك لكنها لم تفزع حين رأت بيتها مليئا بكل شىء إلا الأزهار .

كانت تحس نفورا من الرجل وإن شاركته حياته .. حتى ماذا ؟ حتى إنها لم تكن تعلم عن غدها شيئا .. شاركته الحياة والسلام ، وأجبرت نفسها بكلمة قالتها تلميحا ، كلمة « نعم » التى قالها والداها تصرّحا يوم

خطبتها له .. هل تسمعين يا أحلام ؟  
 كانت تصلّي كلما كانت مهمومة ، خصوصا في الليل عندما تتكاثر  
 على جسمها متاعب النهار وعلى قلبها هواجس الظلمة .  
 وفي إحدى الليالي حاولت أن تتجه إلى الله في صلاتها بمشاعرها كلها .  
 أحست أنها تريد أن تكلم أحدا وأن تستعين بمن هو أقوى منها . وبطريقة  
 آلية بدأت صلاتها . وريدا رويدا زالت الآلية عن الصلاة وحل محلها  
 اندماج وخشوع وشيء يكاد يكون اتحادا . فلما فرغت رأت دموعا على  
 خدها وراحة بين جوانحها .

ومنذ هذه الليلة أدركت أنه من الممكن تحريك المشاعر بالطريقة التي  
 تحرك بها « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام . وهكذا يصبر من  
 يتكلف الصبر .. ويتشجع من يتكلف الشجاعة ، ويكي من يتكلف  
 البكاء .. وقد يحب من يتكلف الحب .. هل تسمعينى يا أحلام ؟  
 — نعم أسمع ..

— ومنذ هذه الليلة أخذت تبحث في زوجها عن نقطة تبدأ منها  
 « عملية الحب » ، فوجدت فيه شيئا جديرا بالحب ، هو أنه رجل صبور  
 شديد الاحتمال يتسامح عن غضبها وأخطائها حياله . فماذا فعلت ؟  
 صارت تعتمد أن تغضبه فينظر إليها نظرة الصابر الغافر . عندئذ تتجه  
 إلى قلبها لتقول له : « ألا تستطيع أن تحب هذا أيها الجاحد ؟ » .

وكانت كلما سجلت في إثارته رقما سجل في الصبر والعفو عنها رقما  
 أعلى . حتى كان يوم من الأيام فأنخرطت في بكاء شديد بعد إحدى  
 التجارب .. واحتضنته بحنان وهي تقول له : « أنت لا تدري أى رجل  
 أنت ؟ أنت أكرم من ملك . إننى أحبك » فأحست في روحه بعثا

جديدا ..

ومنذ ذلك التاريخ عاشت حياة ليست كحياة العشاق ولكنها خالية من المتاعب .

وتنهدت سعاد كأنها تستريح من الكلام ، وتنهدت أحلام كأنها تمنى أن تسلك نفس الطريق . وكانت على وجهها في هذه اللحظة آيات الرضا التي تظهر على من يستريح في أعقاب سفر متعب .. ثم قالت لربة البيت :  
— جائز .. جائز أن يحدث مثل هذا وأن تكون هذه المرأة موجودة في دنيانا .

فأجابت سعاد .:

— إنها موجودة .. إنها هي التي تحدثك . إنها قصتي يا أحلام ..  
فردت في ذهول :  
— حقيقة ؟ لم يكن يبدو ذلك .. ١ .. كان كل شيء هادئا باستمرار .  
إنك رائعة ..

ليس في الموقف شيء خارق للعادة . أكبر الاختراعات يبدأ بمحاولة ، وأطول الرحلات يبدأ بالخطوة الأولى ..  
فقالت أحلام : « سأحاول بكل ما أستطيع » .



## السلوى

كان جو الليلة مائلا إلى البرودة ، وعلى الأرض بلل من مطر يعكس  
الأضواء الزاهية بألوانها كلها على أسفلت الشارع . والجمهور الخارج من  
السينما يتطلع إلى السماء متعجلا عودته إلى البيوت .. فقد كان الجو يندر  
بمطر جديد والعشاق والأزواج يلوذ بعضهم ببعض كأنهم يطلبون  
الدفء .

ولم تكن سيارات الأجرة الواقفة على مقربة من السينما قليلة في هذه  
الليلة ، ولذلك كان سائقوها يتعجلون كل نداء .. وأول سيارة تحركت  
من المكان كانت قاصدة إلى مصر الجديدة يقودها شاب على رأسه قلنسوة  
من الصوف نزلت حتى أذنيه لتتنع عنه البرد .

أما الراكبان فقد كانا رجلا وامرأة كل منهما في متوسط عمره ، عليهما  
طابع الأناقة ويبدو أنهما غير زوجين . وبعد أن أقفل باب السيارة ملأ  
العطر أنحاء المكان وتهدت المرأة وهي تضطجع في الركن ، وجلس  
صديقها على مقربة منها متلامسين وإحدى كفيها مسترخية بين كفيه .  
أما السائق فقد كان مرهف السمع . أذنه متأهبة لأن تسمع كل همسة  
لأنه كان يعيش في مأساة شخصية منذ ثلاثة أسابيع . وكان يسمع في ثرثرة  
بعض الركاب من خلفه ما ينسيه أمله أحيانا .. ثم يفيق إلى الطريق حيث  
توقفه الأنوار الحمراء أو تسمح له الأنوار الخضراء بمواصلة السير .

وحتى ميدان باب الحديد لم تصدر كلمة من أحدهما . ولما وقعت  
الأنوار البنفسجية من المصابيح الساهرة في الميدان على وجه المرأة ، خيل

لصديقها أنه يراها مسبلة الأجفان وكأنها تحلم ، فسألها بصوت سماعه السائق :

— لماذا أنت ساكنة ؟

فأجابت وكأنها استيقظت من النوم :

— آه .. يمكن .. ربما .. لأننى لا أريد أن أهوش الصورة العالقة فى ذهنى من بعض مناظر الفيلم .

وعندئذ تذكر السائق العنوان الكبير المكتوب تحت الأضواء على واجهة السينما ، وتذكر صورة رجل قد وضع كفه تحت ذقنه وهو جالس يفكر وعلى مقربة منه وجه حسناء .. والفيلم نفسه اسمه « خيال حسناء » ، لكن السائق لا يعرف تفاصيله . غير أنه أحس أن علاقة معينة وإن كانت مجهولة تربطه بكل قصة حب .. خصوصا فى هذه الأيام التى يعيشها وكأنه فى دوامة . فتهد السائق فى الوقت الذى سمع فيه تنهيدة أعلى درجة قد صدرت من الخلف .. من الرجل الآخر .. وبدأت السماء تسكب مطرها . وأخذت المساحة على الزجاج الأمامى للعربة تعمل فى رتابة متحدة والشارع ممتد طويل يلمع كأنه نهر ساكن . وانطلقت من خلال هذا الصمت ضحكة عالية من الراكب قال بعدها لصديقتها :

— وهل تذكرين منظر الوداع الذى كان بينهما ؟

— آه .. هذا ما لا أستطيع أن أنساه .

— ها ها .. إنه كان متناقضا بحيث ضحكنا وأنا أبكى . فعندما قابلته فى الكازينو والمكان خال حولهما ، أخرج كل منهما لفافة وقدمها إلى صديقه فى صمت .. ها ها .. هل تذكرين هذا المنظر ؟ .. كفانا الله شر ذلك .

ثم ضغط على كفها التي أحس بالبرودة تسرى في أطرافها ، ولم يستأنف الحديث مباشرة . وفي هذه اللحظات التي ظلل فيها الصمت إلّا من أزيز محرك السيارة ، رجع السائق بذهنه إلى أيام يتذكر الخلاف الذى دبّ بينه وبين أهل خطيبته ، وكيف أنه ذهب إليهم ذات مساء فدخلت عليه حماة المستقبل وقدمت إليه لفافة .. تركها السائق موضوعة حيث كانت وظلّ يحلق في وجه المرأة بعينين تفيضان بالالتهام ..

ثم صدرت من الراكب سعلة خفيفة أعقبتها ضحكة صغيرة من السيدة ، قالت له بعدها بصوت هامس لا يخلو من الدعابة :

— ألم أقل لك إنه يجب أن تترك التدخين ؟

— وأنا ألم أقل لك إنه يجب أن تتركى .. ( وهمس بصوت خافت )

.. الحب .

— نعم قلت .

— لا التدخين ولا هو .. أستطيع أن أتركهما .

وكان السائق في هذه اللحظة على الرغم من سماعه ما قيل لا يزال واقفا بأفكاره عند اللفافتين .. اللفافة التي قدمت إليه واللفافة التي تبادلتها البطلان في الفيلم .. وأطفأ شوقه سماعه للرجل يكمل الحكاية .

— ولما تبادلا الرسائل فأخذت ما سبق أن كتبته إليه وأخذ ما سبق أن كتبه إليها ، وأوشك الموقف على الانتهاء تقدم إليها برجاء ما لبثت أن نفذته بسرعة وصمت واهتمام . هو أن ينسخ ضورة بخطه هو من أول رسالة حب كتبها إليه ، وفعلت هى مثل فعله . وقد أثار منظرهما الغاضب وهما منكبان على الكتابة ضحكى ودموعى ..

فشهقت السيدة وهى تضحك في إشفاق .. وعاد الصمت فخيم على

( حلم آخر الليل )

المركبة . وتذكر السائق ليلة أخذ اللقافة التي قدمتها إليه المرأة ، وفتحها فإذا هي تحتوى على القرط والدبلة اللذين قدمهما شبكة لفوزية .. ذات العينين السوداوين والقوام اللين . وكان على يقين وهو يضع الأشياء في جيبه بحماسة الرجل المطرود الذى يدافع عن كرامته ، كان على يقين من أن فوزية تبكى في الحجرة الأخرى . ومنذ ذلك اليوم وهو يحس بإحساس من يبحث عن شيء ضائع ، فهو يحملق في كل الوجوه كأنه سيرها في خيال كل امرأة .. وهو يستمع إلى كل قصة ليلتمس فيها الملهاة والسلوى ، وحدث نفسه :

— « لو كانت فوزية تعرف الكتابة لأرسل إليها خطابا بطريقة ما وتلقى منها الردّ . إنه لا يشك في أنها تحبه لكن أمها تصرفت بالنيابة عنها . وأبوها رجل كسير الجناح ضعيف لا كلمة له ، فلو كان ذا شخصية في بيته ربما تغير الموقف » .  
وتهد وعاد يصمم بشفتيه .

وقالت السيدة الجالسة في المقعد الخلفى هامسة في أذن صديقها :  
— يظهر أن النعناعة التي في فمه لم تذب حتى الآن .  
وضحكت في خفوت ، وأراد صديقها أن يغطي على ما قالته خوفا من أن يكون الرجل قد سمع ما قالت ، فتنحى وعاد يتكلم بصوت مرتفع عن حوادث الفيلم :

— « لقد رحل إلى أمريكا الجنوبية بعد ذلك ليغير الجو والناس .. مسكين .. تصورى أننى رثيت لحاله كأنتى كنت أعرفه حين رأيته يحمل متاعه كهيما لهاجر إلى بلد آخر .. و .. » .  
فقاطعت السيدة قائلة باعتزاز وثقة :

— ونسى أن الذكريات ترحل مع كثير من الناس . ألم ترحل معه فعلا ؟ بالعكس .. كان انكبابه على أعمال الزراعة هناك وإغراق نفسه في العمل ، دليلا على أنه عاجز عن المقاومة ..  
فتمتم الرجل قائلا :

— أه .. يعنى .. ماذا إذن تظنين أن يفعل الناس ؟  
وساد الصمت مرة أخرى . وكانت السيارة قد اجتازت ميدان العباسية وأخذت في الاتجاه إلى طريق مصر الجديدة ، وانخرط السائق في الأفكار :

— « هل من الممكن أن أهاجر من القاهرة .. لأنسى .. مادام البعد عن أماكن الحوادث يساعد على النسيان ؟ لكن .. إنها هي ذى أمانى ..  
إننى أراها تهتز في هذه « العروسة » المعلقة أمام الزجاج في العربة .. كأنها تنظر إلى بعينها . فقط لو أنهم صارحوا بالسبب الذى من أجله عملت أمها معى هذا العمل القبيح ؟ »

وعاد يمصمص بشفتيه ، فغالبت السيدة ضحكة غالبتها وقالت  
تهمس :

— يظهر أنه وضع في فمه نعناعة أخرى ١١.  
فما كان من صديقها إلا أن رفع صوته ليدارى على حماقتها قائلا :  
— هل تذكرين السبب الذى حملهما على الخلاف ؟  
فأجابت بدلع :

— نعم .. لقد عذبتها بغيرته عليها في كل مناسبة ، وكان آخرها قصة  
غيرته من معلم الموسيقى العجوز الذى كان يتردد عليها في بيتها ، ثم قدم  
إليها هدية بمناسبة عيد ميلادها . وحاولت أن تقتعه أن الفنانين فيهم رقة

فطرية بالنسبة لكل الناس .. لكن .. عبثا حاولت معه .. واتسعت شقة الخلاف حتى أدت إلى الفراق ..

— على أن أجمل شعور إنسانى أعجبنى هو شعورها نحوه بعد غيابه .. فكما كان هو يحرق نفسه فى أعمال الزراعة لينسى كانت هى تحرق نفسها بطريقة أخرى ..

وسكت وأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة ، وخيل للسائق أنه نسى الموضوع .. وكاد يتدخل ليسأله عن المسألة لكن لطف الله به جعل الراكب يقول :

— كانت المسكينة تسهر كل ليلة لتكتب له رسالة طويلة تقول فيها كل ما تشتهى .. ثم تمزقها .

عندئذ خيم السكون مرة أخرى فعاد السائق يفكر :

— « آه .. لو كانت فوزية تعرف الكتابة ! مسكينة إنها لا تملك أن تكتب حرفا ولا تملك أن تنطق حرفا .. فى وجه أمها ولا أبيها حتى ولو كان مرتبطا بمستقبلها » .

ومصمص بشفتيه وأخذ يسترجع سلسلة الحوادث بينه وبين أسرة خطيبته منذ عام مضى حتى الليلة المعهودة ، فتذكر شيئا أثار شكوكه . سعد الدين أفندى ناظر الزراعة الذى كان يتردد عليهم ، والذى قالت عنه فوزية ذات يوم إن زوجته قد ماتت ، ثم أخذ يحمل الهدايا الكبيرة من مال غيره لأم فوزية من بواكير العنب والمأنجو والبطيخ بصرف النظر عن أنه من سن أبيها . وقد رأت الأم أن الفرق بينه وبين سائق تاكسى فرق كبير . نعم .. لقد رأى ذلك فى عينيها ذات ليلة والضيف عندهم ، لكنه لم يكذب يصدق ظنونه ..

ثم قال فى نفسه : لكن .. أليس من الجائز أن تهب الرياح فى اتجاه آخر .. أن تموت أم فوزية .. أو أن يموت سعد الدين هذا .. أو أن تهدد فوزية أمها بالانتحار إن زوجها منه فترجع إلى ؟ .. لكن .. هناك حل أسهل من كل هذا هو .. ( وكاد ينطق بأفكاره ) هو .. أن أموت أنا .. وأحس بغصة فى حلقه وبحاجة إلى الدموع . وجاءه صوت السيدة من الخلف تقول : يا لها من رواية .. لعن الله الحب .. لقد عذب الاثنين .. فخرج إلى القصة الأخرى وقال بينه وبين نفسه :

— سأجعلها فألاً لقصتي ، فإذا عاد الحبيبان فى الفيلم كل إلى الآخر عادت إلى فوزية .. وإلا .. لا ..

وعندئذ جاءه صوت من الخلف يقول :

— البيت الثانى على اليمين بعد الناصية .. من فضلك .

وهناك نزلت السيدة . وواصلت السيارة شوطها .. فقال السائق فى نفسه لماذا لا أسأله الآن عن ختام القصة عسى أن يكون فيها أمل ، فضلاً على أنها شئ مشوق .

وأخذ يجمع شتات شجاعته ليسأله عن نهاية الفيلم .. وتردد .. وعاد يمصمص بشفتيه .. وأخيراً استجمع قواه وهتف :

— يا سعادة البية .

فردّ عليه صوت مرح يقول ضاحكاً :

— كأنك تعرف البيت .. نعم . نعم . هو التالى إلى اليمين .. لعلك

جئت معى مرة قبل ذلك .. قف !

فوقف .. ونزل الراكب ببقية القصة ، وتحرك السائق بأثقال قصته ، وقبل أن يفيق من غمرة الأحداث التى بخلت عليه بالسلوى ، سمع صوت

— ٥٤ —

رجل مخمور ينادى بصوت متلعثم ويشير بحركات مضطربة قائلاً :  
— تاك .. سى .. تاك .. سى !  
فذهب إليه وهو يلقي نظرة على العروسة المعلقة في مقدمة العربة التي  
تأرجح أمام عينيه .. كأنها طيف من الذكرى .



## اقتلوني بسيف الحب

تعرفت على ابنها في السنوات الأخيرة ، عقب تعيينه موظفا معنا في الديوان .

ويوم دخل علينا مكتبنا ، نظر بعضنا إلى بعض نظرات ذات مغزى .  
وحين كان يفتش أدراج المكتب الخالي الذى مات صاحبه فأخلى له المكان والدرجة ، كانت نظراتنا تقول : يا له من شاب ثقیل !!  
كان يبدو متكبرا مغرورا ، تحصنت كبرياؤه في وجهه وسيم لا تسمع ملامحه لأحد أن يسخر منه .. وتحصن غروره في قلة الكلام فهو لا يشارك في حديث يتطلب الرأى إلا بحذر شديد .  
لكننى اكتشفت فجأة أن هذا الهيكل الجميل المنفوخ المتكبر يحمل بين حناياه قلبا طيبا ساذجا ، يتشهى ويتمنى ، ويتحصن من الناس بشيء واحد ، هو سوء الظن .

كان ذلك والوقت صيف حين خلا علينا المكان ، وبقية الزملاء في إجازة ، ودخل علينا عامل البوفيه ليجمع الأكواب ويفرغ من الطقاطيق أعقاب السجائر .

وكان اليوم أول الشهر ، وكنا نعرف عن هذا العامل سمعة معينة ، ورأيت العامل ينظر إلى صدق أفندى نظرة فيها قلق ، ثم خرج من الغرفة دون أن يتكلم ثم عاد متلمسا عذرا ، ونظر في نواحي الحجره كأنه يفتش عن فنجان ، فقلت له وأنا أفتح أدراج مكتبى ساخرأ منه : تعال ! تعال ! فتش ها هنا فرمما وجدت فنجانا !

فخرج وهو يهز جسمه الطويل ، لكننى أشفقت عليه وأخليت له المكان بعد لحظة وذهبت لبعض شئونى ، وحين فتحت الباب من جديد كان العامل قد أنهى حديثه مع صدق أفندى وسارع بالخروج فى اللحظة التى كنت أستقر فيها على كرسى مكتبى .

ألقيت على زميلى نظرة جانبية شامتة ساخرة فى وقت واحد ، ثم قلت له وأنا أفتش فى جيبى عن علبة السجائر : « وقعت يا حلو ؟ »

فرفع صدق رأسه من بين الأوراق وقال وهو يضحك بفمه الصغير : — « بإرادتى والله .. صدقنى .. بإرادتى والله » .

فأجبت : « لا داعى للمبالغة ، فإن الرجل محتمل خطير » .

فأجاب صديقى : طبعاً .. أنا أعلم ذلك !

فقلت له : وألذ ما فى احتياله أننا نسقط فى شبكته ونحن نعرف أنه محتمل . هل أخذ منك نقودا ؟

— نعم ، أخذ . .

فقلت وأنا أقهقهه :

— غريب أن يحدث هذا وأنت رجل حذر .

فقال وهو يتنهد :

— أعتبر هذه غفلة ؟

فقلت ووجهى غير ناظر إليه ، وأنا أنفخ تراب سيجاره الذى سقط على أحد الملفات :

— غفلة بلا شك .

فاستطرد :

— ليتنى كنت مغفلاً .. فأحب كل الناس !؟ ..

ثم زاغت عيناه في فراغ الحجرة ، حتى تركزتا على برنيطة المصباح  
المدلى من السقف في سلك طويل ، ثم استرد نظرتة وألقاها علىّ وهو  
يقول :

— أحمد .. تعال هنا لحظة ، إن كان عندك وقت .. تعال .  
وجلس على كرسي من الخيزران مرخى النسيج من كثرة  
ما استعمل ، فقدم لى سيجارة أخرى . ودق جرس مكتبه فدخل علينا  
عامل البوفيه نفسه وقد زالت من عينيه نظرة القلق ، وألبست الطمأنينة  
وجهه نورا وهدوءا وبشاشة . فطلب صدقي فجاننا من القهوة ، ثم مال  
علىّ يتكلم :

— هل تعجب من هذه الأمنية التي أتمناها ؟! إننى أطلبها من الله منحة  
من عنده . تأكد يا أخى أن المغفل الذى يحب كل الناس أسعد بالاً من  
الحذر الذى يسيء الظن بكل الناس . وأنا لا أزال أذكر حكاية جدتي ..  
أم أمى التي كنت أحبا كثيرا ..

فهمزت رأسى أستزيده فاستطرد :

— رأيتم يخرجون بها من البيت وأنا ابن ثلاث سنوات بطريقة غير  
مألوفة ، مفزعة لم أفهم معناها ، بين صراخ وعويل . فلما دخلت  
حجرتها في المساء فلم أجدها قالوا : إنها مسافرة . وظللت أرقب عودة  
المسافرة ولكنها لم تعد ، حتى بلغت سنا عرفت فيها أن كلمة السفر في  
بعض الأحيان ترادف كلمة الموت .

فقلت : طبعاً ، فقد كنت طفلاً صغيراً .

فقال : لكننى نجوت من مشكلة فهم الموت ، ومشكلة الحزن على  
الموتى بسبب غفلة الأطفال ..

— ٥٨ —

والمغفلون أطفال .. سعداء في عالم الحب .  
فقلت وأنا أقطب جبينى :

— وإلى هذا الحد أحببت الحب ؟

فأجاب وهو يهز رأسه في إصرار :

— نعم ، ولكننى لم أصل بعد إلى ما تهفو إليه نفسى .

— لماذا ؟

— ذلك شئ قديم ..

— جدا ؟

— قدم طفولتى .. أنا ابن السابعة والعشرين إن لم تزد .. هل هذا

قليل ؟ ..

اسمع !!

لم ينبج أبى من الأطفال سوى اثنين فحسب .. بنت صارت  
عروسا ، وولد صار شابا هو أنا . وكانت أختى أكبر منى ، وكانت  
مختلفة مع أمها باستمرار لأمر لست أعلم تفاصيلها وإن كنت أعلم  
بعضها . لكن الذى يهمنى الآن هو أن أقص عليك حادثة معينة وقعت في  
أسرتنا مرتبطة بما نتكلم عنه ، مرتبطة بالحب الذى يصل إلى درجة  
الغفلة ، والحد الذى يصل إلى درجة الهستريا . فاسمع !

كان باب الوسط يفصل بين الحجرتين ، الحجرة التى أذاكر فيها وأنا  
غلام ابن اثني عشر ربيعا ، والحجرة التى تجلس فيها أمى وأختى الكبرى .  
وتوقفت عن المذاكرة حين وصل إلى صوت نقاش حاد نشب بين أمى  
وأختى ، وقام هذا النقاش عقب انصراف ضيوف من شقتنا .

وكان الكلام يصل إلى واضحا إلا من بعض ألفاظ لم يكن غيابها

يشوش الحادث ، وكانت أختى تلوم أمى على أنها أغلظت القول لهذه الأرملة صديقة أمى القديمة ، والحديثة الترميل . كانت أمى تريد أن تحدد العلاقة بينها وبين هذه الأرملة بعد أن أبدت رغبتها فى الاستعانة بمجهود أبى على تسوية أمر معاشها هى وأولادها . وتخيلت أمى أن المسألة ليست مسألة معاش ولكنها مسألة خطة . وأن هذه الأرملة التى بدا الانكسار على جمالها فزاده فتنة ، ستستولى على أبى بعد جولة أو جولتين .. فتحرشت بها أمى حتى أغضبتها . وحين قالت لها الأرملة وهى تبكى عند باب المسكن : « والله لن أدخل عتبتكم بعد اليوم .. » لم تردّ أمى عليها . وكانت أختى فى الداخل تخفى دمعها بين كفيها .

ولم تعد المسكينة بعد ذلك إلى بيتنا قط .. واستعانت بالله وبناس غير أبى على قضاء مصالحها . ولم تحاول أمى أن تصل حبل ودها فغابت ذكرياتها فى ضباب الليالى ..

وكل هذا لم يكن غريبا على خصال أمى ، فقد كانت معاملتها دائما تدور حول هذا المحور : الحذر الذى يولد الكره ، أو الاحتياط الذى يشبه الهستريا .

وقد لقنتنى هذا وسقنتى إياه ، وإن أصبحت أكرهه كما يكره الخمر مدمن الخمر .

لهذا ترانى هكذا ، كما ترانى ، لا أشد عن حذرى إلا إذا تشوقت إلى معاينة الضد ، كمثلى البخيل المخبول الذى يوسع على أولاده مرة من المرات ليزوق طعم الإسراف .

ثم سكت صدق لأن عامل البوفيه دخل ليجمع الأكواب ، ولما أقفل الباب من ورائه وهو خارج استطرد صدق يقول :

— لقد أعطيت هذا المحتال جنيتها طلبه منى . لقد أدلى إليّ بعذر محبوبك ، لكننى واثق من أنه استعمله مرة قبل ذلك عند موظف آخر فى الحجة الأخرى . أعطيته ما طلب لأذوق طعم الغفلة فقط ، أو لأذوق طعم الحب ولو كان فى كأس من الاحتياى .

قلت لصديقى : هذا غريب ! إنك لم تبد لى مطلقا فى مثل هذا الذكاء . أقصد أننى لم ألس عمق أفكارك من قبل كما لمسته فى يومنا هذا . فلماذا تبدو اليوم هكذا يا أخى ؟ .. وضحكت فقال :

— أغبى الأغبياء يستطيع أن يصف لك تجربة عميقة على شرط .. على شرط أن تكون شخصية وذات أثر بعيد المدى فى حياة هذا الغبى . وابتسم صدق ثم سكت .. ثم قام ففتح مصراع الشباك الثانى ليدخل هواء أكثر .

وكان ضجيج الآلات الكاتبة فى الجناح المواجه يأتى إلينا وكأنها فرقة لوز .. فرقة متصلة لا تكاد تنقطع . ثم جلس وتند ليستأنف القصة :

— أما أختى « عنايات » فقد كانت بعكس أمى . فنبته وسألته :

— تقول : كانت ١٩

— نعم .. كانت . وأنا أقصد ما أقول .

— وهل تغيرت بعد ذلك ؟

فهز رأسه فى أسف :

— لا تقاطعنى .. لا تأخذ الحكاية من الذيل .. انتظر .

كانت بعكس أمى . كانت تحب الناس .. كانت ألوفة تحرص على أن تعرف مصير جليباها القديم الذى تخلعه . لكن أمها كانت بمثابة الشكيمة

من الحصان تمسكها فجأة إذا نسيت أو اندفعت . وكأنا أراد القدر أن يجعل نهاية حياتها الشابة حادة مثل عاطفتها تماما ، فقد كان لنا ابن خالة يتردد على بيتنا ، وكانت أمي واثقة من أنه زوج المستقبل لبنتها الوحيدة . وكان — كما ظهر بعد ذلك — بين الفتى والفتاة حب عنيف . ثم فترت العلاقة فجأة حتى أصبح تردده على بيتنا قليلا .. ثم انقطع .

وبدأت عنايات في الذبول . وتغيرت أحوالها .. وكثر اعتكافها كما كثر عدد القطع التي كانت تنتجها من أشغال الإبرة . كانت تشتغل كثيرا وتدمع كثيرا وتقفل عليها باب غرفتها بالساعات ..

ونشب الخلاف بينها وبين أمنا حول هذا الموضوع . اعتقد أن الفتاة كانت قد باحت لها بمكنون نفسها ، وأن الأم التي خيل لي أنها تربط بين العاطفة وجدول الضرب قد قست على ابنتها في الأمر ، وتخيلت أن الهوى كلمة تكتب بالطباشير .. تكتب بسهولة ثم تمسح بنفس السهولة !

ثم انتهت قصة عنايات نهاية درامية كالتي تقرأ عنها في الروايات . سمعنا فجأة أن ابن خالتي خطب ، فلم نصدق ، لكننا تأكدنا حين عقد قرانه على فتاة أخرى . دعنا من قصة الأخرى فهي خارجة عن نطاق موضوعنا .

وتزوج ، وصفي حسابه بالنسبة للفتيات .. لكن عنايات لم تستطع أن تصفى حسابها بالنسبة إليه .

يظهر أن قسمة الحب بينهما لم تكن مضبوطة ، لأن نصيبها منه كان أكبر من نصيبه ، فجاء نصيبها في المأساة أكبر بالطبع .. وسكت صدق ، فهزرت رأسي أستزيده فقال :

— ثم اعتلت عنايات .. ثم استبدت بها علتها . وفي أمسية من

الأمسيات خلق على سريها طائر الموت . عجيب أن نحب فنسعد ، وأن نحب فنموت !

وابتسم وتابع حديثه :

— وكنت أنا وأمى إلى جوارها ، أما أنى فقد فر من البيت . لم يطلق أن يرى شمس شبابها وهى تجنح إلى المغيب وقت الظهر فطار إلى الخارج . وكنت أحملق فى وجه أختى بغضب وأسف وحب وحقد . وقمت لبعض شأنى وهى مطبقة عينها ، ثم فتحت عليها باب الحجرة ودخلت ثانيا فإذا بها تفتح عينها وتبتسم . وأشرق وجهها كله حتى تخيلت أن خضرة الحياة ستدب فيها من جديد ، لكنها عادت فأغمضت عينها وهى تهمس :

« هل جئت .. كانوا يقولون .. إنك لن تعود .. تعال ! »

وماتت عقب ذلك وبقي على وجهها من بشاشة الحب .. شئ أشبه بنور الشفق بعد غروب الشمس كان يزول ويوارى ويبدأ . أما أمى فقد زاد حنقها على الناس أو زاد كرهها للحب بعد هذه الحادثة .

وغابت الحوادث فى ضباب الليالى ، وهأنذا أعيش مع أمى وحدنا فى بيتنا .. وقد دفعنى هذا المحتال اليوم دفعا إلى أن أجرب الحب على النطاق الواسع الذى قد يصل إلى حد الغفلة ، فتذكرت كل ما قصصته عليك . ومضى على ذلك عامان ..

كان صدق فىهما كما هو دائما ، وسيما صامتا متصلا بنفسه وحدها ، أشبه بخلية العسل المقفلة لا يدرى أحد مقدار ما فيها .. حتى فوجئنا ذات صباح بأمر نقله إلى إحدى مديريات الوجه البحرى فى مركز أحسن . ولم يكن أمامه عقبة يعتد بها إلا أمه تلك المقيمة فى بيتها بالقاهرة ، لأنها تحتاج إلى رعاية الأطباء ولا تستطيع أن تفارق ملكها ، ولا أن تعيش فى



بلد غريب .

وأخبرني أن قراره قد استقر على أن يسافر ويتركها ، وأن يأتي إليها كل أسبوع أو أسبوعين على حسب الظروف ليدبر مصالحها .. ولو أن افتراقهما سيكون مرا لأنهما لم يجربا الفقرة قبل ذلك يوما واحدا . ثم رجائي أن أقوم مقامه في السؤال عنها لأنها تعرفني ولو أنها لم ترى كثيرا ، وأخبرني صدق بزهو شديد أنني استطعت أن أنال ثقة أمه . في ماذا ؟ في لا شيء ! إلا أن ثقتها شيء غال جدا لا يمنح إلا لمن من الله عليه ووفقه .. وضحكنا .

وحين رأيتهما من جديد حيل إلي أنني لم أرها من قبل . كانت قد تغيرت ، لبست ثيابا من الشيخوخة الموحشة غير ذات الحنان ، تذكرك بجناحين تنف عنهما الريش .. وما قيمة جناح لا ريش عليه لا يدفئ حتى صاحبه !؟

وشاخ الحذر في عينيها لكنه بقي حيا . وكنت إذا جلست إليها لا تقص علي ما تقصه المسنات في العادة من حوادث ونوادير يوفرها للناس طول العمر ، وتلك من أكبر مميزات الشيخوخة . كانت لا تحدثنني إلا عن خوفها من النهاية . فقلت في نفسي : اللهم ارحمنا .. ارحمنا يا رب .

تقضى أيام قوتها خائفة من هم أقوى منها ، وها هي ذى تقضى أيام ضعفها خائفة من الموت . ما هذا العمر !؟ ..

وهربت منها الخادمة بعد سفر ابنها بعد الزيارة الثانية فخلا عليها البيت . وحين أبدت لي مخاوفها من رقادها وحدها ، أبدت لها استعدادي أن أبيت معها . فسكنت موافقة لكنها تمتعت بكلام فهمت

منه بعد ذلك معنى التردد ، فعدلت .

وحين طرقت عليها بابها في الصباح التالي لم تفتح لي إلا بعد مدة طويلة ، وكانت آيات الفناء بادية على وجهها ، وكان ردها على تحية الصباح أن قالت لي : أرسل لابني برقية ليحضر .. أنا مريضة !! ثم نادتنى وأنا نازل فرجعت لتقول لي من جديد : أجلسها لباكر .. لنتنظر وقتا آخر .

لكننى عدت في المساء فوجدتها متعبة ، فأرسلت لابنها أستدعيه . ولم أذهب في اليوم التالي إلى مكتبي لأننى توقعت لها مكروها . وأعطتنى أم صدق عنوان إحدى قريباتها تسكن في إحدى الضواحي فذهبت إليها وأخبرتها . وبعد ساعتين من عودتي دخلت علينا القرية ضجرة متضايقة كأنها تحمل على كتفها نصف الأرض .

ونامت العجوز أو غابت عن وعيها لست أعلم . وتركت أنا المسكن وخرجت مؤملا أن أعود فأجد ابنها قد رجع ، لكننى رجعت فوجدت المنزل كما تركته .. صامتا موحشا أشبه بجو الحقول في الليل بعد أن يخليها الحصاد من كل زرع فلا يبقى فيها مطمع .. وهكذا كانت ساعاتها الأخيرة !!

وعرفنا دقة صدق على الباب لأنها دقة مذعورة . وقبل أمه في جبينها وهى مغمضة العينين . ولم يكن على وجه العجوز آثار راحة . من الحاضر ؟ مؤكد .. من الماضي ؟ مؤكد أيضا !! أما ما بعد الموت فعلمه عند الله .

ونظرت إلى ابنها ونظر إلى وتذكر كل منا « القصص » ولم تتكلم . تذكرنا « عنايات » التى هتفت قبل أن تموت حين توهمت أن حبيبها

داخل عليها : « هل جئت ؟ .. كانوا يقولون إنك لن تعود .. تعال !! »  
تذكرنا هذا في اللحظة التي فتحت فيها علينا قرية أم صدق باب  
الحجرة التي ترقد فيها المريضة ، حين همست المريضة بصوت ضعيف  
تقول : « هل جئت ؟ .. إن عنايات لا تريدك .. اخرج !! »  
وتكرمش وجهها بتجاعيد كثيرة جدا ، وظلت دلائل الصرامة باقية  
عليه حتى آخر نفس .

ماتت البنت وعلى وجهها آثار من بشاشة الحب ..  
وماتت الأم وعلى وجهها آثار من كدر الكراهة ..  
وكنت أهبط السلم لأساعد صديقي في بعض الشئون المعتادة في مثل  
هذه الظروف ، وأنا أقول في نفسي : « لا .. يفتح الله يابا .. إذا كان  
لا بد من إحدى حالتين فلنمت كما ماتت عنايات . اقتلوني إذن بسيف  
الحب » .

## الرجل المريض

ما قابلته مرة وسألته عن الحال ، إلا قال لي بعد أن يرخى شفتيه إرخاء  
المشمعزين :

— زفت ..

فأكمل ساخرا :

— وقطران ؟

— وقطران ..

فأتركه وأنصرف وأنا أحس سعادة لا نظير لها ، بسعادة الذين  
ينظرون من وراء الزجاج وهم في الحجرة الدفينة إلى الذين يهرولون تحت  
المطر ، ثم أسير وأنا أسأل نفسي :

— هل حياتي أنا شخصيا تخلو من المتاعب ؟ لا .. لكنها ليست زفتا  
ولا قطرانا .. إنها مائدة ملونة عليها أشياء كثيرة ، فلماذا يكثر هذا الرجل  
من الشكوى ؟

وكنت عرفته منذ ثلاث سنوات ، قدمه إليّ أحد الأصدقاء الذين  
التقى بهم على القهوة مساء كل جمعة ، حيث كنا نلتقى فيشرح بعضنا  
لبعض ملخص أنباء الأسبوع ، ويتحدث كل منا عن نفسه فيذكر نعمة  
الله أو يشكو الهم أو يطلب النصيحة ، إلا عثمان أفندي هذا .

كان يعلق على كل ما يسوء تعليقا أشد إساءة ، ويتجههم في وجه الذي  
يقص قصة سعيدة ، ويتشاغل في نقل قطعة من قطع الشطرنج على الرقعة  
المربعة .

ومنذ ثلاث سنوات كان عثمان أفندى رقيق الحال ، فى سنة ١٩٤٠ شغل بالنا وباله وبال خادم القهوة بسفالة رئيسه فى المصلحة وسوء اضطهاده له . كان عثمان أفندى يتحدث دائما عن رئيسه إلى حد أننا ظننا أننا عشنا مع هذا الرئيس . وكان يختم شوطه فى اللعب إذا انتصر فيه بقوله بضحكة ودعوة : « ها نحن أولاء قد انتصرنا .. يخرب بيتك يا أستاذ بسيونى » . ويفعل العكس إذا انهزم : « ها نحن أولاء قد خسرنا الدور .. يخرب بيتك يا أستاذ بسيونى » .

وأضحك ويضحك الناس . وسألنا وتحرينا — إنصافا للغائب ورعاية لحقه — عما عسى أن يكون قد فعله الأستاذ بسيونى فى الأستاذ عثمان ؟ أعنى عما عسى أن يكون قد فعله الرئيس مع المرءوس ، فلم نجد إلا أشياء غامضة .

— هل نقصك حقك فى الترقية يوما من الأيام ؟

— لا .. ترقية إيه ؟ هل هناك ترقيات ؟ وجهه شؤم والسلام .

— هل يكلفك فى العمل أكثر مما يكلف غيرك ؟

— لا .. غيرى إيه ؟ هل تظن أن الإدارة التى أعمل فيها تشتمل على

موظفين ؟ .. كلهم حمقى أغبياء ، لا أستطيع أن أتصور كيف يسير

العمل هناك لو أننى غائب عنها ؟

— ممّ تشكو إذن ؟

— لا تسألنى عن هذا .. اسألنى عما يعجب فى حياة كلها زفت .

ويضحك بعضنا ويتغامز الباكون ، وأحس وأنا جالس بدفع

السعادة . إن لى زوجة مريضة تستهلك معظم مرتبى فى الأدوية ، وكثيرا

ما أستدين . وشهيتى أقوى من طعامى ، ولعل ساق أطول من رجلى

بنطلوني ، ولكنني أرى أن في الحياة أشياء جميلة .  
 هناك ولد هو ابني أنظر إلى عينيه بحبة وأمل ، وزوجتي المريضة  
 تتحامل على نفسها لتخدمني ، وقد تناغيني وتدخل على قلبي المسرة مخفية  
 معالم تعبها ، فأتجاهل وأسعد نفسي وننام بعدها سعيدين نحن الاثنين ،  
 وأهمس بيني وبين نفسي :

— ألا يملك عثمان أفندي في بيته مثل هذا الخير وهذا الشر ؟  
 وأسكت ، وأنظر إلى ملابسه فأجدها خيرا من ملابسي ، وإلى صحته  
 فأجدها خيرا من صحتي . ودخله قدر دخل ، فماذا به ؟  
 وفي نهاية سنة ١٩٤١ جاء عثمان أفندي إلى القهوة مساء الجمعة وهو  
 يلعب ويسب ، ويكرر حكاية الزفت والقطران باستمرار وإصرار .  
 وانهمز في عدة أدوار في الشطرنج في هذه الليلة .. وكان يلعب بخبث  
 وينهزم فجأة ، ويدعو على الأستاذ بسيوني بخراب البيت كلما قام عن  
 اللعب .

وأخيرا قبل انصرافنا من القهوة أعلن فجأة : « أنه تركها »  
 — ما هذه التي تركتها يا أستاذ ؟  
 — الوظيفة ..  
 — الوظيفة ؟

واختلفنا ونحن في الطريق ، ووقفنا كثيرا في ميدان السيدة نناقش  
 الموضوع — فقد كنا كلنا موظفين — وحاولنا أن نصل إلى النتيجة .. هل  
 هو مخطئ أو مصيب ؟  
 واتفق الجبناء على أنها مصيبة ، وأعلن الشجعان أنه عين الصواب .  
 لكن ماذا ستعمل يا عثمان أفندي ؟

— ٦٩ —

— الدنيا حرب .. وقد دبرت بضعة مئات من الجنهات من مالى  
ومال زوجتى لأفتح مكتبنا اسمه « شركة .. » للنقل لعموم القطر .  
وابتدأوا يعلقون :

— عرفت باب الغنى ..

— مغامرة ..

— أرزاق ..

— إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه ..

— برافو ..

— وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ..

— هناك خطر واحد فيما إذا لو توقفت الحرب فجأة ..

— لا .. الخطر هو فى أن « رأس ماله » يتحرك ذات اليمين وذات

الشمال على الطريق نحو الجنوب ونحو الشمال ..

« ها .. ها .. ها » .. وضحكننا ..

وانقطعت أخبار عثمان أفندى فلم نعد نراه ما يقرب من عام ، ثم هلّ  
علينا فجأة فكبر الجرسون وهلل .. وتلفتنا ونحن نلعب الشطرنج فإذا  
عثمان أفندى داخل وعليه علامات العز ، وله شارب طويل وهيئة تدل على  
أن فى جيبه « محفظة » .

— يا سلام .. كيف الحال يا سيد عثمان ؟

فابتسم فى وقار وهز رأسه بنوع من الكبرياء ، وقال وهو يجلس على  
كرسى :

— زفت أيضا .

ورئت ضحكاتنا فى صخب ودبدب بعضنا برجله على الأرض ،

— ٧٠ —

وطلب عثمان أفندى شيشة ، وأخذ دوره في الشطرنج ، وهزم ، وقام يدعو بخراب البيت على من .. على الأستاذ بسيونى أيضا .

— لماذا يا رجل ؟ لقد تركت الوظيفة وانقضى الأمر ، وفتح الله عليك بسبب ذلك .

— ها .. ها .. أنت لا تفهم .. لقد وجدت « أستاذ بسيونى » جديدا في السوق بعيدا عن الوظيفة ، أعوذ بالله ، في حياتى دائما « أستاذ بسيونى » .

— أى .. إذن فأنت تطلق هذا الاسم على كل منافس لك ؟

— تمام ..

— هل تخلو الدنيا من المنافسين ؟

— لا أعرف .

— طبعا فأنت تريدها لك وحدك ، وهذا مستحيل .

— زفت ..

— طبعا لأنك تريدها « لبنا » خالصا وعلى طول الخط ، وهذا

مستحيل .

— لقد تركنا الوظائف والفهم والتفكير ، فدعونا من هذا ..

— حسن .. أتريد أن تلعب ؟

— لا .. سلام عليكم .

وردت أصوات مشتركة في نبرات مختلفة :

— وعليكم السلام ورحمة الله يا عم عثمان ..

ومضى على ذلك خمس سنوات ، وكدت أنسى هذا الشخص في صوره المختلفة . كدت أنسى عثمان أفندى فى بدلة الموظف ، وأنسى السيد



— ٧١ —

عثمان في أبهة التاجر ، حتى جلست ذات مرة في إحدى المركبات العامة فإذا بي أجد إلى جانبي وجها ، عرفت فيه ملامح قديمة ، لكن دلالات السن كانت بادية عليه . وترددت في أن أكلمه .. ، وأخيرا عرفته تماما بأثر جرح خلف أذنه ، وكانت إلى ناحيتي لحسن الحظ .. وقلت له بحركة آلية صرف كما يقول كل الناس :

— أهلا .. الأستاذ عثمان .. كيف الحال ؟

فإذا به يقول بلهجة حقيقية تحمل طعم المأساة أصدق بكثير مما كنت أسمعه قديما :

— زفت .. لكن .. الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله ..

وأخرج من جيبه منديلا أبيض غير نظيف ولا مكوى ، ومسح به عرقا قليلا .. ولم يخرج كلامنا عن النطاق العادي ، وأخيرا نزلنا معا لأن الترام وصل آخر الخط .. ونظرت في عينيه فإذا فيهما كلام ، وانتحينا ناحية على مقربة من رجل ينادى على ترمس بصوت رائق ونبرة سعيدة ، وييل ريق الناس على الطريق العام بقلل على عربته في أفواهاها نعناع أخضر ، فقلت له :

— ما القصة ؟

— القصة ؟ .. كسبت كثيرا جدا .

قلت بحماسة :

— عظيم ..

فقال بانكسار شديد :

— وخسرت كل ما كسبت ..

وكان ذلك يبدو عليه دون أن يقول ، عليه بدلة رمادية أسوأ من التي

— ٧٢ —

كان يسب فيها أجداد الأستاذ بسيوني أيام كان موظفا . وسألته :

— لكن لماذا جرى هذا لك ؟

— آه .. سألتني ، غرفت أخيرا أن هناك فرقا يا سيدي بين الطموح والחסد ، وفرقا يا سيدي بين البلادة والقناعة ، كنت أرى أن كل ذي نعمة ليس أهلا لها ، ولا أرى النعمة إلا في أيدي الناس ، لذلك .. تعبت .. ولما كان « الغنى » شيئا لا نهاية له فإن متاعبي كانت لا نهاية لها ..

قلت مجاملا :

— لا .. أنت تظلم نفسك ، ليس الأمر معقدا إلى هذا الحد .

— أنت تجاملني . لا ، لقد رأيت ملاح نفسي جيدا ، بعد أن عملت مقاولا وأكلت إحدى المناقصات كل الذي جمعه في زمن الحرب .. لقد رجعت من أول الخط .. ثانيا ..

ولم أجد ما أقوله ، فمددت له كفى بإشفاق وأنا أقول :

— دعنا نراك على القهوة ، لا زلنا نذهب إلى هناك كل ليلة جمعة ،

تعال .. سرّ عن نفسك ، إن مرحنا لم يفارقنا بعد ، هناك ننسى الهموم يا صديقي .. لا تنس أن تحيي ..

فقال وهو يصافحني :

— سأحاول

— وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

فأشار إلى الترام العائد :

— ٧٣ —

— سأعود إلى أول الخط .. مرة أخرى .. لقد ركبت خطأ فذهبت  
إلى غير مقصدي ، سأعود من جديد ، سلام عليكم ..  
ونظرت إلى ظهره فرأيت بين كتفيه آثارا من العرق ، ورقة على البدلة  
الرمادية التي تشبه بدلة الوظيفة القديمة ..

## سحابة صيف

كان الصيف فى أخرياتة يوم عزمت على السفر إلى الإسكندرية ..  
و كنت مشتاقا يومئذ إلى الخلاء لأننى كنت ضائعا بنفسى .

كان هناك كثير من المشاكل والمنازعات تخيم على جو أسرقى ، منها أن بعض السندات التى أملكها تدهورت أسعارها فى السوق ، وأن سوء هضم شديد حرمنى لذة الطعام ولذة النوم وجعلنى أحسب ألف حساب لكل لقمة وكل ضجعة .. وأن أختى اختلفت مع زوجها فطلقها وعادت إلى البيت فى يدها ولد وعلى كتفها بنت وفى بطنها جنين ، وأن أمى ابتدأت تشعر بانها عصبى وتبكى لسوء بختها . وكان أبى فى عداد الموتى منذ كنت ألعب بالكرة فى الحارة خالى الذهن من النتائج التى تعقب تغيب الآباء .  
لذلك كله وجدت نفسى مشتاقا إلى الخلاء ، وكانت جدران المباني فى القاهرة كأنها تصدم نظرى وتسد على طريق التنفس .. فحننت إلى الأفق الواسع والأماكن غير المزعومة ، وإلى التقائى مع نفسى وجها لوجه وأنا جالس على إحدى صخور الشاطئ .

ويوم نزلت الإسكندرية كانت ريح الخريف تهب عليها بنشاط ..  
كانت كأنها تعبر البحر أفواجا لتحمل المصطافين على المظلات والرحيل إلى الجنوب مرة أخرى .

وكنمت فرحة خامرتنى حين رأيت المدينة على هذه الحال . استطعت أن أحصل بسهولة على غرفة بسرير واحد فى لوكاندة متوسطة الأجر .  
حسبت المبلغ الذى استصحبته فرأيت أنه يكفى عشرة أيام ، فحمدت

الله لأن عشرة أيام في رحلة موفقة أجدى على الصحة والروح من شهرين تتخللهما المتاعب .

وفي صباح هذا اليوم تأخرت في حجرتي قليلا فلم أخرج كعادتي ، مع أنني نمت في الليلة الماضية نوما هادئا جدا . ونمت بعد العشاء ولم يرقد الأكل على قلبي ولم تتخلل ليلتي أحلام ثقيلة .

في هذا الصباح الذي أحدثك عنه أحسست راحة مسترخية ، ولذة في التمدد ، وإقبالا على قراءة قصة كنت اشتريتها بالأمس من بائع متجول ولم أقرأ فيها حرفا .

فبقيت متمددا في الفراش وسحبت الكتاب من الوسادة وضغطت على زر الجرس فانفتح الباب في اللحظة التي كنت أقرأ فيها كلمة « الفصل الأول » المكتوبة بأحرف فارسية جميلة ، قلت للخادم بعد أن أطل بوجهه النوى الوسيم الملامح :

— أريد أن أتناول إفطاري هنا ، ولا تنس الشاي من فضلك .

وارتد الباب واسترسلت في القراءة ، ولم تمض دقائق لعلها كانت خمسا حتى دق الباب على بعنف غير عادي ، وأطل الخادم مرة أخرى بوجهه الوسيم الملامح وقال بسرعة :

— القاهرة تطلبك بالتليفون .

وترك الباب مفتوحا وانصرف .

وخرجت في ملابس نومى وفي رجلى شبشب أجره إلى حيث التليفون . ولم أكد أصل إلى هناك حتى رأيت سيدة تجرى في أعقابي وعليها روب وفي رجلها حذاء . كان صوت كعبه على الأرض ينبئ عن مدى سرعتها ، ولم آبه لها بالطبع حتى التقينا هناك . وفي اللحظة التي رفعت فيها

السماعة وبدأت أقول « ألو » كانت هى تتسائل عمن طلب من القاهرة .  
 وكان هناك لبس فقد استدعى بعض الخدم نزيل الحجرة نمرة « ٤٠ »  
 واستدعى بعضهم نزيل نمرة « ٤١ » ، ولعل السر فى ذلك راجع إلى خطأ  
 الخواجة فى إملاء الرقم أو فى ترده بين الرقمين .  
 وكانت تجمع أطراف الروب على جسمها بفتنة وأنا ما أزال فى انتظار  
 إتمام المكالمة ، حتى إذا ما تيقنت أننى أنا المقصود ابتسمت فى شئ من الحجل  
 وخيبة الأمل معا قبل أن تلقى على نفسها نظرة فى المرأة المعلقة فى الحائط  
 المقابل ، وانصرفت لشأنها .  
 واطمأنت على الأحوال فى القاهرة ، وبادلت الذين اتصلوا بى بعض  
 إرشادات وتلميحات ، ثم رجعت إلى غرفتى وجعلت أقطع الوقت بالقراءة  
 حتى جاء الطعام .

\* \* \*

فى عصر اليوم نفسه ذهبت إلى الكازينو المعتاد الذى كنت أقضى فيه  
 ساعات طويلة ، كان الجو فى هذا اليوم أميل إلى البرودة حتى أن معظم  
 النوافذ الزجاجية فى مقدمة المكان كانت مقفلة تماما ، وكان البحر نائرا  
 يصنع بأمواجه كهوفا ومغارات وتلالا من الماء ، ورغوة الحركة تطفو إلى  
 السطح كأنها حليب أبيض .  
 وجلست فى الصفوف الأولى وطلبت فنجانا من القهوة ، ولم يكن  
 المكان مزدحما فتخيلت أننى أتأنفس بسهولة ، وألقيت بخواطرى إلى  
 البحر .. إلى العالم المائى العظيم العميق المجهول الذى شهد بدء الخليفة أيام  
 كانت ظلمة وماء فحسب ، ثم شهد البواخر والغواصات .. وفتحت  
 القصة بشرود لأكملها ورشفت رشفة من القهوة ، واستأثرت حوادثها

بانتباهي على الرغم من أن امرأتين يونانيتين إحداهما صبية والأخرى عجوز كانتا تتناقشان بصوت عال حول موضوع لا أعرف معناه .. ومضت فترة من الوقت لست أدري قدرها لأن موسيقى البحر الصاخبة في هذه الفترة كانت متمشية مع الوقائع التي أقرأها كما تتمشى الموسيقى التصويرية مع حوادث الشاشة .

غير أني أفقت على صوت يخاطب « الجرسون » ويقول له : خشاف من فضلك .. أرجو أن تسرع » .

وتذكرت الصوت وكان قريبا مني ، وحين نظرت لم أروجه صاحبه لأنه في هذه اللحظة كان قد اختفى خلال جريدة يومية فلم يتح لي إلا أن أرى ذوائب شعرها من فوق .

بيد أني كنت واثقا من أنها جارتى في الفندق ، التي قابلتها في هذا الصباح عند التليفون ، وكانت وحدها وكان وجهها لا يزال مدفونا بين صفحتين من الجريدة . فطويت قصتي ووضعتها على المنضدة ، وجلست أنظر ..

فظهر الوجه فجأة فصيح تخميني ..

وكان البعد بيننا غير كبير فأومأت لها بالتحية ، ثم انصرف كل منا إلى ما كان فيه غير أن الطمأنينة لم تعد تظللنا . كنت قلقا وأحسست أنها قلقة .. وهمت أن أتقدم فأجلس إلى منضدتها وأبادها الحديث لكنني عدت فترددت .. أليس من الجائز أن يكون زوجها في الطريق إلى الكازينو بعد أن سبقته ، فهي متزوجة وخاتم الزواج في يسراها ؟ وأليس من الجائز أيضا أن تعتبر عملي هذا إقداما جريئا فأفتح على نفسي به باب الملامة ، وأنا اليوم شاب قد جاوز الثلاثين وينبغي أن تتسم أعمالي بطابع

غير طائش ١٩.

ونظرت إلى البحر وكان فوارا ، وعدت بعد شرودى ففتحت الكتاب .. وكانت أول كلمة وقع عليها بصرى هي كلمة « اللقاء » . ولم أسترسل طويلا في القراءة لأننى أحسست قلقلة أحد الكراسى حين قامت الحسنة وفتحت نافذة زجاجية تطل على الماء . وتدفق الهواء كأنه بربخ وكان يحمل رشاشا لا يحتمل في بعض هباته . وتعذر عليها أن تقرأ وأن تضبط وضع شعرها على رأسها ، فابتسمت ابتسامة من أخلف ظنه ، وقامت من جديد لتقل الشباك ولكن يديها الطريتين لم تقدرا على ذلك ، وقبل أن تصفق ليحضر الجرسون كنت أنا بجانبها أعالج إقفال النافذة ، فشكرتنى ، وأومأت إليّ بالجلوس في اللحظة التي كانت تستلقى فيها على مقعد مقابل .

\* \* \*

وطلبت أنا خشافا لأدفع حساب الخشافين . وألقيت نظرة على الصفحة الأولى من الجريدة التي على المنضدة ، فقد كنت لا أقرأ الصحف حتى لا تقع عيني على سوق الأوراق المالية فيها .. وألقيت نظرة على عنوان الكتاب الذى وضعته على المنضدة . ثم درج بيننا الحديث .  
لم يكن عندهم وقت لقضاء الصيف كله أو بعضه على أحد الشواطئ في هذا العام ، لولا أن حادثا هاما دفعهم إلى الفرار بهمومهم من العاصمة .

فقلت بينى وبين نفسى : ولو زود الله البحر بالقدرة الكافية على ابتلاع هموم الناس ، فلماذا يعانى المقيمون على شواطئه ليالى الهموم ؟



وجعلت أتفرس ملامحها الصغيرة .. كان كل شيء في وجهها قد خلق بحساب إلا شعرها الغزير المنفوش من آثار معركة النسيم . وزمت شفتيها في شبه أسفى وهي تفسر مصدر همومهن في هذه القصة : إن زوجها فقد ابنه الشاب في حادث .. حادث أليم .. وكان طالبا في الجامعة . فنظرت إلى فستانها الأحمر ذى الزهور البيضاء ، فأجابت كأنها ترد على استفهامي :

— « ابنه .. من امرأة أخرى ! »

وأذنت ملعقة الخشاف الصغيرة من فمها الذى لا يكاد يسعها ، لأنه كان في ضيق الخاتم .. على حين سرحت تجاه ولده .. حتى يلبس السواد ! واستحوذت على أفكارى مرة أخرى حين استطردت :

— لقد تأخر كثيرا في العاصمة .. تأخر أكثر مما كنت أتوقع .. لذلك كنت ترالى قلقة وقت الصباح ساعة طلبت خطأ لأرد على « الترنك » .

سألتها : وهل ستقيمون هنا طويلا ؟

فأجابت : « ذلك الأمر ستقرره النقود وليس هناك من يشاركها الرأى فيه ! »

وضحكنا ، وأشارت بسبابتها الطويلة البيضاء إلى حادثة في صدر الصحيفة شغلت الرأى العام في ذلك الوقت ، حتى أفاق الرأى العام نفسه وجعل يتساءل : لماذا هو مشغول هكذا بهذا الحادث ، مع أنه ليس نادر الوقوع ؟ وكان الحادث خيانة زوجية انتهت بقتل الزوجة بيد العشيق .. كأن الجريمة والقصاص وكلا إلى شخص واحد .

وقرأت الحادثة بسرعة وعلامات اشمئزاز بادية على وجهي ، حتى إذا ما فرغت رأيت عينيها تطلبان الحكم في لهفة على موقف العشيقين . فلم

— ٨٠ —

أتكلم ، فقلت باشمئزاز يخالطه رعب :

— شيء فظيع .

— أى شيء تقصدين ؟ الحادث محتو على أشياء كثيرة .

فأجابت وهى تعض على أسنانها :

— القتل .

فهزئت رأسى وكأنتى لا أوافق على شيء لكن عينيها ظلتا تطلبان رأى

فى خبث وإصرار ، فقلت :

— هى الزوجة ..

— والزوج .

— لا بالطبع .. لكن كل القرائن تدل على أنه مهمل . اعقلها وتوكل

يا أستاذ ، أما الفوضى فإنها تؤدي إلى ..

— إلى الفوضى .. وليس هناك مصير أسوأ من الفوضى نفسها ..

لكنى عدت فقلت مغالطا أو ممتحنا :

— لقد نسينا شيئا مهما يا سيدتى ، هو أن القلوب كائنات لا يمكن

أن نعقلها ثم نتوكل . لم يستطع إنسان على وجه الأرض أن يوجه قلبه ..

القلوب هى التى توجه إلا إذا كانت السيارة هى التى توجه عجلة القيادة .

فاستغرقت فى ضحكة مرحة رج بها المكان الخالى ، حتى جاء

الجرسون وجعل يجمع الأطباق الفارغة وعلى وجهه ابتسامة مفهومة .

ولمنا على الأفق بعد قليل موكب الغروب ، فنظرت إلى ساعة

معصمها واستأذنت ، وإن عينيها تقولان : أود أن أراك ، وإلى اللقاء .

وانصرفت وبقيت وحدى ..

وفى آخر السهرة دخلت الحجرة وأشعلت النور .  
ولأول مرة وأنا أستلقي على فراشى لاحظت أن بين الغرفتين بابا  
وسطا .. مقفلا مصادرا . وأن مرآة الزينة فى حجرتى تسد هذا الباب .  
وجعلت أتخيل وما أكثر الخيالات فى ليالى الوحدة ، خصوصا عندما  
يكون هناك طارق جديد يدق باب القلب ..  
تخيلتها راقدة وحدها فى ثوب أبيض شفاف كأنه من لعاب الشمس ،  
تحلم .. وتحلم ، أو جالسة تقرأ ، أو مستعيدة كلامنا وقت العصر . وأنها  
وحدها .

ولم أتم بل لم أحس بوادى نوم قط ، فعللت هذا بعلل كثيرة ، وتخيل إلى  
بعد قليل ألى أسمع حركتها فى الحجرة .. وقع أقدام ونقل كرسى وأشياء  
مبهمة . فنقرت ييدى على باب الوسط بحركة كأنها غير مقصودة ، فإذا  
بها ترد النقرة بمثل الحركة . وعدت فعادت ، وإذا بى أسمعها تقول « ألم تنم  
حتى الآن ؟ نم ا »

وتخيل إلى أن النوم سيمثل لأمرها ويحيى ، لأن المخدر سرى فى  
أعصابى من همسها فى الليل :

— نم يا عزيزى .

— حتى تنامى .

— سنلتقى غدا ؟

— ربما .

وهممت أن أقول لها أكثر من ذلك ، وأن أطلب منها أن ينتقل أحدها إلى  
الآخر ، لكن السكون الذى ظلل المكان كان ينم عن أقل حركة ..  
وفى اليوم التالى تكلمنا كثيرا ، وبدألى أننا على أبواب حب عنيف ..  
( حلم آخر الليل )

وشكت لى أن زوجها لم يطلبها من القاهرة ، وأن قلقتا يخامر قلبها عليه .  
ورسمنا خططا للمستقبل ، فيها أنها ستكتب إلى أحد تطلبنى بالتليفون  
فى عملى بعد انقضاء أيامنا فى المصيف .. ونسينا معا الحوادث التى تكلمنا  
عنها أمس ، والتى لا تزال الصحف تفيض فى نشر أسرارها ، لأن وقوع  
الحوادث لا يعنى عدم تكرارها ، والعظة التى تحملها الحادثة كالترىاق  
الذى تحمله السموم ، وهل تستحيل السموم فى عصر من العصور إلى  
ترىاق خالص ؟

\* \* \*

عدت مساء هذه الليلة بعد الثانية عشرة وكل شىء فى جناحنا نائم ،  
واثنان من الخدم جالسان يشربان الشاي . غريب !  
وألقيت نظرة إلى شراطة الحجرة المجاورة وأنا فى الطريق ، فوجدت  
النور ساطعا فيها .. إنها لا تزال يقظة .  
وأتييت عدة حركات وأنا أخلع ثيابى ، وغمغمت بغناء خافت وأنا  
أستلقى على الفراش ، ولكن حركة واحدة لم تأت من داخل حجرتها .  
وبعد ربع ساعة تكرر الموقف .. سمعت دقة على باب الوسط .. دقة  
غير مقصودة كأنها من يد بسطها صاحبها وهو نائم ، ففعلت مثلما  
فعل .. ثم انتظمت الدقات ، ثم بدأ الهمس :

— هل كنت نائمة يا عزيزتى ؟

فجاءنى صوت مبحوح يقول :

— نعم .

وقلت بعد ذلك ما لا أذكره الآن ، ولكن لم يكن هناك رد  
إلا بطرقات منغمة تحاكي دقات البنات على جلدة الطبله . ثم توقف الدق

فجأة وسمعت جدلا واحتكاكا وتحرشا بين رجل وامرأة ، ثم نزاعا كأنه عراك انتهى بأن سمعتها تقول لزوجها :

— الذى لا شك فيه أن كلا منكما كان يظن أن امرأة وقعت فى الشبكة ، تبا لكم أيها الرجال !

ثم سكن كل شيء وكأنا رجاءا ألا تثير ضجة . أرجح أنها انتصرت عليه وأنها كانت نائمة واستيقظت على الطرقات ، وخيل لى أنهما ناما نوما هادئا فى الوقت الذى ظلت أنا ساهرا أسترجع الماضى وأحسب ألف حساب ، حتى غلبنى النوم .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة حين استيقظت من نومى ، وقرعت الجرس فطلبت الإفطار . وكنت كلما طرق على الخادم باب غرفتى أتوقع أنه سيقول :

— إن شخصا ما يريد مقابلتك .

ومرت ساعة ثم ساعة ثم ساعة ، وقارب الوقت أن يكون ظهرا ، وبدأ الحر خائفا لا يكاد يطاق ، فاغتسلت وأخذت فى ارتداء ثيابى قبل الخروج .. وأخيرا سمعت صوت أحد الخدم ينادى على زميله ويقول له :

— عبده .. عبده .. ساعدنى على حمل هذه الحقيبة الثقيلة ، نعم إن

ثمرة « ٤٠ » خالية منذ الصباح . ألم تعلم ؟

وتنفسست الصعداء ، وقصدت إلى الكازينو بعد الغداء فجلست مكان البارحة . وكان البحر فوارا يصنع بمائه تلالا ومغارات ، ويصب على حوافها الحليب ، والنوافذ الزجاجية فى صدر الكازينو مغلقة جميعا ، واليونانيتان تثرثران فى هدوء ، والعجوز لابسة السواد ، والمنضدة التى شاركتنى الحسنة الجلوس إليها كان عليها رجل فى الخمسين يشير بالقلم فى

— ٨٤ —

حركات توافق همساته ، كأنه يجمع أرقاما ..

والخريف يهيب بالناس أن يرحلوا .

وفي القاهرة ظللت أنتظر بلا فائدة .

وهذا هو الصيف الثاني يقارب على النهاية وفي نيتي أن أقضيه في

الإسكندرية أسبوعا واحدا ، فهل سألقاها هناك ؟

وهل سيتحدد صيف كان مثل سحابة الصيف ؟

## امراة ومصباح

فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا كله وقد يزيد عليه . ونحن مع ذلك — وفى غفلة لذيذة — ندفعه مسرورين . والسرى فى ذلك هو أن قانون الحياة يسلكنا فى صفها ويربطنا فى الطاحون ونحن لا نشعر . لم تكن العاصمة الكبيرة — مدينة القاهرة — تشعر بمأساة هذا البيت الصغير ذى الطبقة الواحدة .. القائم فى تواضع ذليل واستقامة غير محدودة .. فى حى قريب من مدافن النصارى وسفح الصحراء وجامع عمرو .

عانى المالك فى اقتناء الأرض التى بناه عليها مشقة تقرب من مشقة الخلق ، فقد ظل يقطع ثمنها من دخله الصغير خمس عشرة سنة ، ثم أحاطها بالسلك ثم بنى فيها بالطين بعض مبان .. ثم زحفت المساكن وتعددت ألوانها وأصبح الحى أهلا بالصبيان والقطط . وعلا فيه صراخ الباعة طول النهار وارتفعت فيه أصوات الراديو . فنهض أخيرا ذلك البيت ذو الطبقة الواحدة القائم فى تواضع ذليل واستقامة غير محدودة .

وفى يوم من أيام مارس من سنة .. انتقل المجاهد مالك هذا البيت إلى رحمة الله ، وظل وابور الزلط متعطلا يوم وفاته لأنه هو السواق ، واجما كأنه منع من السير فى الجنازة أو حزينا كما يحزن الجواد على فقد الفارس . وقد استمعت زوجته إلى « تلخيصه » لحياته كما يفعل كثير من الناس قبيل الساعات الأخيرة ، حين يحسون بطرق غير معروفة أنهم سيرحلون: — الحمد لله .. تعبنا كثيرا ، ولكن .. لقد عملنا شيئا ما .. وأنا إذا

رقدت مرتاحا فلأننى وفقت فى أن أجعلكم تملكون هذه الأرض  
الواسعة .. بقعة تسكنون فيها . الله .. لا أحد يطردكم من بين الحيطان إذا  
ضاقتم بكم الأحوال .. أنت والبنات الثلاث تملكن سكنا .. أما الباقى —  
وأشار نحو السماء — فله من يدبره ..

ثم سكن إلى الأبد . واهتز البيت ذو الطبقة الواحدة بأربع نسوة تبكى  
على رجل ، أو تبكى على دخل ، أو تبكى على الدخل والرجل فى وقت  
واحد .

ثم سكن البكاء واستأنفت الحياة سيرها كما هو طبيعى .  
ولاذ النسوة الأربع إلى حجرة بنيت فى السطوح ، وأجر الدور  
الأرضى لساكن ما لتكفى أجرى البيت مطالب الورثة . وخلعت ملابس  
الحداد وعادت الابتسامة إلى الأفواه وأصبحت الصلة بين الوارث  
والموروث متمثلة — فقط — فى الجوافة والبلح والفطير بالينسون الذى  
يوزع عند « طلعة رجب » .

وتقدم خطيب للبنات الكبرى .. عامل ميكانيكى صحيح سليم يتكلم  
بنقطة ويغمز بعينية .

وأعلنت العروس موافقتها فى حماسة ، ولو أن المهر قليل وزوج  
المستقبل يطلب جهازا معينا .

واصطدمت فرحة العذراء بخوف الأرملة من الزمن .. ثم أفهمتها بنتها  
أنها صاحبة حق ولها مطلق الحرية فى التصرف .. وأن فرحة « العرايس »  
لا تكمل إلا بالأحمر والأخضر والعطر والكحل وأن من حقها أن تخرج  
بجهاز .

كانت الأم لا تنشد إلا سعادتها . وأمام إصرارها رأت من الخير أن



تراجع فأدخلت جاراها شريكا في البيت بمقدار الثلث أو بمقدار ما تملكه الكبرى من الميراث وزيادة قليلة .

وتحول المال بعدئذ إلى مراتب وألحفة ونحاس وصيني وأثاث وغوايش وأشياء أخرى . ثم انتقلت العروس إلى بيتها في المدينة فأحست الأم ليلتها بسعادة فوق الوصف . وربما تفوق سعادتها في ليلة أقفل عليها الموروث الباب وقال : ها نحن قد صرنا وحدنا .

وكأنما كان السخاء الذي بذلته الأم في جهاز ابنتها الكبرى إعلانا بلا قصد عن العروسين الباقيتين . فما كادت الوسطى تبلغ حد النضوج حتى تقدم لها أخو العروس السابق .. أخو الميكانيكي . فتى كأنه عود من الخيزران مهنته ( ترزى ) يرشحه أهل الصنعة ليكون أمير هذه الصنعة . ولعل بينه وبين البنت الوسطى هوى مدفونا ، لأن حماسة العروس كانت أشد توهجا من حماسة أختها .

ومشى قانونهم طبيعيا كالشروق والغروب .. فذهبت الأم فورا إلى جاراها في البيت وطلبت منه أن يدخل شريكا بالثلثين أو بمقدار ما تملكه الفتاة الوسطى وزيادة ، ثم حولت ببساطة هذا القدر من المال إلى نفس ما حول في المرة الماضية . وأحست الأم بسعادة أقوى من السعادة الأولى لأن المسألة لم تكن في نظرها مسألة تزويج بنات فحسب ، بل شعرت كأنها تستر شيئا عاريا .. يعنى عرضا .

وتهامس أهل الحى بأمر هذه الأم ، وقال ناس : إنها محقة . وقال ناس : بل إنها مخطئة ، فلو كان زوجها يعلم أن البيت الذى خلفه سيؤول إلى هذا المال ما بذل فيه حبة عرق ..

على أن هذا كان — على أى حال — مؤهلا قويا لزواج البنت الثالثة .

فما كادت تبلغ حد الإدراك حتى تقدم من يطلب يدها .. كمسارى في السكة الحديد في البدلة الصفراء كأنه بدر .. يجلب الزبد والفواكه من الريف الذى يمر به كل يوم ، والدجاج والوز بأثمان زهيدة . ولم يكن هناك مجال للنقاش فقد تقدمت الأم فى صمت إلى جارها تطلب منه أن يشتري الثلث الثالث .. وفى اللحظة التى وقع فيها عقد البيع وقع عقد إيجار الحجرة العليا . وذرفت الأم دموعا دون أن تدرى ، وعلمت أنها ستسكن وحدها .

\* \* \*

وفى الليلة الأولى أحست بفرحة تخالطها وحشة . وقرض كأنه تحذير لم يتكامل ، لكن لا مجال فيه للإحساس بالندم . ثم بدأت تشعر بشيء يخوفها .. كأن حادثا كبيرا سيدق عليها باب الغرفة الذى يهزه فى الليل هواء الشتاء . وقالت فى نفسها : هل سيموت زوجى مرة أخرى ؟ واستغرقها بعد ذلك فكر لذيذ .

— آه .. « زينب » فى حضن « محمد » . و « فاطمة » فى حضن « على » . وأخيرا .. « رقية » فى حضن « إسماعيل » .. كل بنت تحت جناح رجل . هل فى الدنيا أعز من هذا ؟ ممن إذن أخاف ؟

لكنها دمعت فى سكون الليل حين فكرت فى البقية الباقية من عمرها . هل تهددها الحاجة أو المرض ؟ إن حدث هذا فإن مرارة الخاتمة ستستغرق حلالة البداية وأكثر .

واعتمدت على نفسها منذ ذلك التاريخ وعلى البقية الباقية من نور

عينها . ومن ماكينة الخياطة كانت تأكل .. حقيقة أن رزقها كان يدخل إليها من ثقب الإبرة لكنه كان يكفيها .. والخبز مشبع جدا لمن يغمسه في القنعة .

غير أن بنتها الصغرى — وكانت أكثر أخواتها ترددا عليها لأنها لم تخلف بعد — رأت ذات يوم دلائل الفاقة ترفرف على الحجرة ، وحلة نحاس بها بقية طيخ متجمد لم تأكل منه ، وأمارات تدل على الاحتياج تدرك ولا توصف ، وتعرف حتى ولو تكلم أصحابها عن الرخاء .

فلما استوثقت من أمها أكدت لها أن ظنها مخطئ . وفتحت لها درج الماكينة فرأت فيه جنبيين وعدة قروش . لم تكن في الحقيقة إلا ملكا لإحدى الزبائن ثمن قماش ستشتره الخياطة بمعرفتها .

وبكت البنت الصغيرة التي كانت تتردد على أمها دون أختها اللتين شغلها الأولاد ، لأنها رأت أمها تخطط الملابس على مصباح الجاز بعينين ضعيفتين وحركة مضطربة تدعو إلى الرثاء وتندر بأن الزباين سينصرفون عنها . فنحن دائما نحب الأجير القوى ، هل استأجرت مرة حمالا أمتته على حمل متاعك ؟

\* \* \*

وفي صبيحة يوم ما دخلت البنت الصغيرة حجرة أمها .. كان الوقت باكرا والباب غير مغلق من الداخل فانفتح حين دفعته . فرأت مصباح الجاز موضوعا على منصدة الماكينة والأم منكفئة على منصدة الماكينة مستغرقة في النوم كأنها تلميذ أغفى على حافة الدرج .. وهناك قطعة قماش عالقة بالإبرة وطرفها على الأرض . والمقص تحت قدميها عند المدوس .. وذبالة المصباح تتراقص كأنها تختضر .

— ٩٠ —

أدركت أن أمها أخذتها سنة من النوم عند الفجر على الأقل ، لأنها كانت تشتغل في الضوء .. فأحست بألم يحز في قلبها . وعندما أيقظتها لم تستيقظ ، فقد كانت جثة باردة .

وبكت البنت وأطلت من النافذة على السطح وتفقدت كل شيء . وذكرت أن أمها اشتغلت حتى آخر لحظة فلم يكن هناك دقيقة تفصل بين حياة العمل وبين الموت .

ثم تجمعت البنات حول الأم للمرة الأخيرة . وعاد البيت من جديد فاهتز كيوم خرج منه الزوج ، ثم انصرف الناس فخيم عليه السكون .

وفي الليل كان الهدوء أقوى وأشد على البيت ذى الطبقة الواحدة .. والحجرة العليا مظفأة النور موصدة الباب لأن ساكنتها باتت في الخارج . لكن ..

في بيوت أخرى ، قال « محمد » لزينب :  
— هل اطمأنتت على أختان الولد .. أوه .. لكأنك مريضة منذ شهر . هذا هو حال الدنيا . تعالى قريبا مني ..  
فالتصقت به في صمت ..

وقال « على » لفاطمة :  
— هل أعطيت البنت دواء السعال ؟ هل غليت الطبخ حتى لا يحمض ؟ .. أوه .. ليس في عينيك بقية للبكاء .. تعالى قريبا مني .  
فسحبت عليها الغطاء .

وقال « إسماعيل » لرقية :  
— إن خدك ملتهب من اللطم . إنها تنام في قبرها مرتاحة .. فقد اطمأنت على مصير البنات . أوه .. خدك ملتهب جدا .

— ٩١ —

وحين مرت أنامل على خدها أحست بنعومة المرهم ..  
وبعد ساعة أخرى كانت البنات الثلاث مستغرقات تماما ..  
وفي الصباح الباكر تذكرت كل واحدة منهن شيئا انتفض له قلبها  
بشدة .

وفي الساعة العاشرة كانت الكبرى قد وصلت إلى حجرة الأم ، وبعد  
دقيقة تماما وصلت الوسطى .  
وجلستا مطرقتين لا تتكلمان . وبعد خمس دقائق كانت الصغرى قد  
وصلت وبكين قليلا . ثم نظر بعضهن إلى بعض والتقت النظرات أخيرا  
على ماكينة الخياطة .

لكن الصغرى صرخت فيهن :

— هل جئنا من أجل ذلك ؟

فقال أختها :

— حتى أنت . هل هذا حرام ؟ إنه أحل من لبن الأم .

## يريد أن ينساها

قضى سواد ليله وهو يعدّ خفقات قلبه . قضاءه يعدّها ويتدبّر معناها تدبّر شاب يدرس مهنة الطب ، ويقف إلى مائدة التشريح ليعمل مشرطه في جوارح وأعضاء كان يخاف عليها أصحابها هبة النسيم .  
وأخذت أفكاره تتضح كلما خطا الليل نحو الأمام خطوة وخطت الحركة في المدينة نحو الورا خطوة عكسية ، حتى لم يعد يسمع جعجعة عربة ولا حفيف سيارة ، وكلها يمرّ من فوق رأسه فتدخل إليه الضوضاء من خلال النوافذ لأنه ساكن في « بدروم » . وحتى الحركة في الحجرتين الآخرين المكملتين للشقة سكنت ونامت . وأمسى جوّ « البدروم » مشبعا بالرطوبة أكثر من قبل ، وذلك لأن الليل خطا خطوة جديدة نحو الصباح .

وخفت الأصوات في الحجرة الملاصقة التي يسكنها طالبان من طلبة الأزهر ، وحمى بينهما وطيس الجدل قبل أن يناما حول مسألة لا يدرى طالب الطب أفضلية هي أم نحوية ؟

وأخذت أفكاره تتضح تحت رواق الليل حتى لكانه يلمسها لمسا . واستمع من جديد إلى خفقات قلبه فاسترسل معها وعاش كما تسترسل مع النغم حتى تخال أنك سابح فيه . ثم جعل يسأل نفسه عن عدد خفقاته منذ دبّت فيه الحياة حتى جاوز اليوم سن العشرين ، وإلى أى مدى ستدوم هذه الخفقات ؟ وكم من ملايين الملايين سيبلغ عددها يوم الممات ؟! يا له من عضو نشط يسهر حتى ونحن نيام !

ثم أمسك لأنه انتبه إلى دقائق ساعته من تحت المخدة ، وابتسم حين رأى بين الجهازين تشابها عجيبا .. كلاهما يدق !! هذا يدق فيجعلنا نحس الوقت لأننا نعيش ، وذلك يدق فيجعلنا نحصى الوقت لنعرف كم نعيش !! وتخلصت أفكاره من استطرادها الطارئ فعدت إلى ما كانت فيه من قبل . ذكر القلب وخفقات القلب ، فاستحضر صورته كما رآها في حجرة التشريح ، له أذنان وبطينان ، وأوردة وشرابين ، وأشياء أخرى .. ولكنه وثب وثبة كبرى فخرج من دنيا العلوم إلى دنيا العواطف ، وذكر اليوم الحاسم الفعال في علاقته معها ثم بدأ يستعرض القصة .

كان يريد أن ينساها ولو أن كل شيء يذكره بها . وهذا هو الأسبوع وقد دارت دورته وجاء صباح الخميس ..

إذن فهو لم يرها منذ أسبوع . منذ الخميس الماضي بعد أن أمسى المساء فلقيا في مسكنها .. وبعد أن قضى معها فترة من الوقت هبط درجات السلم المظلم الدائر وقد صحَّ عزمه على ألا تطالع عيناه معارف وجهها الحلو مرة أخرى ولو أحرقت أوصاله النار . ولم تكن هي تعلم بأنه اتخذ هذا القرار وإلا كان من الجائز جدا أن تلقى بنفسها من النافذة على مرأى منه حتى تضمن أن يسجى جسدها بيمينه .

ومرَّ الأسبوع كالحثا ثقيلًا كان فيه أشبه بمن يعيش في دوامة ، لكنه كان مصراً على ألا يرجع خطوة واحدة إلى الوراء لاعتبارات شتى أهم ما فيها أنه يريد أن يضع نهاية لهذا اللون من الحب ، وأنه جعل رجولته في كفة وجعل السلوان في كفة أخرى ، وأنه أراد أن يضع رجولته كذلك في بوتقة تجربة عالية الحرارة ليستيقن من أنها ستثبت على الصبر .

وهكذا مرّ الأسبوع . وخرج في صباح يوم الخميس آخذاً سمته إلى الكلية ، وكان منشراح الصدر نوعاً ما لأنه لم يحس ضعفاً خلال المدة التي انقضت وإن قاست نفسه ضروباً من الحنين وألواناً من الأفكار .  
والتفّ الطلبة حول منضدة التشريح في الغرفة وبدأوا يستلّون أسلحتهم ليعملوها في جوارح خاف عليها أصحابها هبة النسيم ، وكان بين أيديهم في هذه الحصة .. قلب !

وقلّما يسأل الطبيب وهو يعمل المبضع في هذا العضو العظيم ، وعاء العواطف ، قلّما يتساءل : ترى قلب من هذا ؟ وإن تساءل مرة أو مرتين فغالباً ما تتخلف الثالثة . وإذا اقتنعت بمنطقي فإنك ستسلّم باستحالة أن يسأل الطبيب نفسه قائلاً : أقلب امرأة هذا ، أم قلب رجل ؟ وبعد ذلك يغمد في القلب السلاح بنفسية من يغمد المديّة في جلدة البطيخ . وهذا هو ما يجري في حجرات التشريح .

لكن الذي حدث صباح يوم الخميس كان غير ذلك ، لأن أحد الطلبة ممّن التقفوا حول المنضدة تساءل بعد أن علت شفّتيه ابتسامة خبيثة : ترى قلب من هذا ؟! فهمس في أذنه جاره الأيمن وكان كثير المرح يقول له : « ولا القلب إلّا أنه يتقلّب » هذا هو كل ما تخلف في ذهني من روايب المدرسة الثانوية .. هل تعرف صدر هذا البيت ؟ .. ما لنا ولصاحب هذا القلب أيها الزميل ؟ فقال الأول : حسبتك تعرف صاحبه . فابتسم الجار الأيسر ، وهو صاحب القصة ، ثم مال إليهما مستغرباً موضوع الحديث فما كان من الطالب الأوسط إلّا أن همس : إنني أعرف صاحب هذا القلب !!

ثم انقطع الحديث بعد ذلك .. وبدأ الطب يسيطر على الحقوق التي



فرضتها الحياة للجسم ، والقدسية التي فرضها الموت للأعضاء ، فأعملت في القلب المشارط وحمى وطيس الدرس فنسى المتسائلون ما كانوا بصدد من قول ، لعلّ بعضه كان نفحة شاعرية ، وبعضه الآخر كان دعاية من دعايات الشباب .

لكن الطالب الأوسط ما لبث أن أعلن بعد انتهاء الدرس على مسمع من المجموع أنه يعرف صاحب هذا القلب . فأقبلوا عليه يستفسرون في فضول مختلف الدرجات ، فقال وهو يضحك ملء شديقه : إنه قلبها .. قلب تلکم الحسنة .. حسنة حارة البغايا .. في درب الخوخة لمرّة ٥ .

هل فيكم من يعرف اسمها ؟ .. كان اسمها جمالات !  
فضحك بعضهم ضحكة ماجنة منعمة : « هـى .. هـى .. ليرحمها الله ! »

كان يجاهد نفسه لينساها ولكن الأقدار أراحته من هذا العناء .  
لقيها يوم الخميس وودعها دون أن تشعر بوداعه ، ثم حمد لنفسه في الخميس التالى أنه ثبت على التجربة وهو لا يدرى أن يدا أقوى من كل شيء ستحول بينه وبينها إلى مدى لا يعلم غايته إلا الله !!

وقضى سواد ليله وهو يحصى خفقات قلبه في ظلال السكون ، ويسترجع صورة قلبها تحت وميض النصال ، فخيّل إليه أنه كان يخفق بحبه حتى وهو في هذه الحالة ، فاستفزع الأمر وكاد يصرخ في ظلام الغرفة .. ثم أمسك ليسأل نفسه : أين موضع الحب من قلوب الناس ؟ وهل تعترفيه أطراف المباح على موائد التشريح ؟ ألا ليتنى أعلم ؟

وهمّ بأن يصرخ مرة أخرى ولكن شخير الشيخ « أبو المعاطى » في الحجرة الملاصقة انتهى إلى سماعه فنحاه عن تيار أفكاره شيئاً ما ، حين قلب

حياة جاره في نواحي فكره وتمنى أن تتاح له هو مثل هذه الحياة .. الحياة الباردة التي لا يصرخ في نواحيها شيء .

لكن جمالات ، حسناء درب خوخة ، ولجت أبواب فكره مرة أخرى : إنهم لا يعلمون أنه الشخص الوحيد الذى وفق فالتقى بالشخصية الشريفة في جسدها المتبذل حتى أصبح هو في حياتها أشبه بالواحة الوحيدة في صحراء دنياها الواسعة الجديدة .

دخل حجرتها أول مرة وهو متأبط ذراع الشيطان ، فدخل يقهقهان ثم خرجا يقهقهان . وتكررت التجربة ، لكن طالب الطب خرج في المرة الثالثة وهو حزين سادر حين اكتشف بين أنقاض الجسم وخرائب المادة روحا جميلا شفافا اندفن تحت هذا الركام .

وأخذت العلاقة بينهما تنجح نحو الصداقة رويدا رويدا . واختلط الزيت بالزئبق على الرغم من كل شيء ، لأن طالب الطب كان يعتذر لنفسه كلما دفعه إليها قلبه متعللا بأن الزيت والزئبق من المحال أن يمتزجا ، وسيبقى كل منهما منفصلا عن صاحبه وإن طال مدة التجاور .

وكان يلقي من أمره عسرا عند كل افتراق لأنها كانت تتشبث به تشبث الغريق بالفلين وتكاد تتعلق بأذياله كما تتعلق الهرة الأنيسة . لكنه قرر فجأة ألا يلقاها ..

وكان ذلك عقب تقديم هدية إليها . ولم يكن هو من اليسار بحيث يستطيع أن يقدم إليها كثيرا ، ولم تكن هي من الاستغلال بحيث تطلب منه أى شيء . فأحس خجلا وحسرة حين تخيل أنه يقتضيها ثمن حنانه القلبى بطريقة « المقاصة » فكأنه يدفع ثمن العطف متعة .. ومن أجل ذلك قدم إليها هدية !!

كان خاتماً جميلاً فيه ثلاث حبات من الماس ألبسها إياه وهما مستغرقان في الحديث ، فلما انتهت إلى ما فعل شهقت سائلة مبهوتة وإن أشرق وجهها النحيف بنور فرح ضئيل قالت : « أهو لي ؟ .. هل أستطيع أن أرفضه ؟ .. أخشى أن أغضبك .. أو أن أرهقك » .

ثم تبين له بعد ذلك أنه فعل أمراً منكراً ، لأن البون شاسع بين كف أمه والكف التي تختتم به الآن . وقامت في ذهنه قضية معقدة لأن الموازنة بين المرأتين في هذه اللحظة جعلته يضع جمالات في نفس المكان الذي يضعها فيه كل الرجال . وكاد ينكر نفسها العظيمة التي طمرت تحت أنقاض الجسد بفعل أيدي الناس !!

ثم لجَّ به الفكر حتى وضع المرأتين متجاورتين فرأى أمه الريفية وعلى رأسها طرحة سوداء تستدير مع استدارة الوجه وهي راكعة عند المدخل على سجادة من الحصى . ثم رأى جمالات وقد تناثر شعرها في فوضى مثيرة وقد تكون مريبة ، فهي امرأة تتزين في كل يوم عشرين أو ثلاثين مرة ، وتعرف دخلها بعد إحصاء عدد مرات الزينة !!

وبعد .. فهذا الخاتم يحمل ذكريات عزيزة . حملته أمه إياه ليصلح بعض فصوصه التي انخلعت من مكانها ثم يعيده مع من يراه أهلاً لحمل الأمانة .. لكنه خان الأمانة ، وسيقف بعد ذلك موقف الكاذبين حين يخبر أمه في رسالة أن الخاتم قد فقد وأنه حزين يشعر بالإثم ويطلب المغفرة .

\* \* \*

وانقضى أسبوع على هذا الحادث ، ولعلها كانت تنتظره في كل مساء لكنه تغلف ثم وقعت الكارثة وشريت حسناء درب الخوخة السم في كأس من الشراب دسّه لها خليل ربما كانت قد عفته بضغظها على قلبه أو بضغظها ( حلم آخر الليل )

على جيبه أو ضغطها عليهما معا ، ونقلت إلى المستشفى وغسلت معدتها لتخلص من السم ، ولكن الماء تسرب إلى صدر شقى فأشقى وخدع فخدع ، فالتهمت رثاها كأنما شَبَّ فيهما حريق .. وركبها الهديان وهو واثق أنه كان موضوع هديانها .

وها هو ذا الليلة يحصى دقائق قلبه ويتحسس في ظلمة الزمن يوما سيكفّ فيه عن الخفقان لأن موتها ذكره بالموت .

ثم مال ميزان المعركة أخيرا وانتصرت الحياة فبدأ يفكر في طريقة السلوان ، ونزل من فراشه وتحسس زر النور فأضاء الغرفة .. وجلس على مكتبه وأمسك القلم كأنما أمسكه ليكتب شيئا .. لكن التفاتة حانت منه إلى خزانة الكتب فرأى على حافتها العليا شيئا تعلّق به بصره ..

ارتاح قليلا وأحس أنه إن قلق يستطيع أن يجد هنا قولا للهدوء !! كانت عيناه عالقتين بمجموعة وضعت على أعلى الخزانة ، فرأى عظمها الخاوى نهاية لكل رأس ، والعينين بركتين ، والفم تجويفا قبيحا ، والأنف مدخلا يوحى بالفناء ، فقال في نفسه : هيه .. إنها هي الأخرى مجموعة امرأة .. لأنها صغيرة الحجم ..

وابتسم في حسرة وهز كتفه برفق ثم قال : جائر .. جائر أنها كانت مثل جمالات . من يدري ؟

ثم أطفأ النور وتحسس طريقه إلى الفراش مرة أخرى .

## زوجة مثلها

لم ير في حياته امرأة كثيرة الغفران ، متناسية لأخطاء زوجها مثل هذه الزوجة .. كانت على حدة طبعها وفرط رقتها وحساسيتها تؤثر أن تكون مهزومة في معظم المعارك ، وترى أن بعض الهزائم في حياة الزوجين أعظم فخارا من أكاليل النصر . فبعد كثير من الخلافات كانت تنزوى في ركن الدار تذرف الدمع وتعد الحصى ، أو تعبت بعود في تراب الأرض ، حتى إذا ما سأها ابنها الصبي — وهو أعز شيء عليها — عما عسى أن ييكها ، ولدت على فمها ابتسامة بددت كل هذه الغيوم ، ثم لا تزيد أمه على أن تربت كتفه أو تلثم خده ، وهي تقول بصوتها المخنوق : « لا شيء .. لا شيء .. لا تتعجل على حمل الهموم فأنت لا تزال صغيرا » .

لكن هذا الصغير كان يؤمن بينه وبين نفسه أن قلبه قادر على حمل آلام أمه ، إن لم تكن كلها فهو قادر على حمل شيء منها . وعندما كبر أدرك أن طاقة القلوب لا تتفاوت أبدا ، وإنما تتفاوت طاقة العقول فحسب . بل ربما كان قلب الصبي أقدر على اختزان المساءة والمسرة منه عندما يصبح رجلا عاقلا . ولو كانت أمه تدرك ذلك في هذه الفترة التي وقعت فيها حوادث القصة ، لالتحذت من قلبه مخزنا تودع فيه همومها .

لكن .. لعلها كانت تخاف عليه .. فقد كانت تراه ييكى في صمت عندما كانت تنكت الثرى بالعود أو تعد الحصى من الجرن ، فإذا ما قست عليه بكلمة خوفا على صباه الطرى فر من الدار إلى الخلاء حيث يلوذ بظل إحدى الأشجار ، ينسى همه بجمع الصمغ ، أو مطاردة الكائنات الصغيرة

التي تحوم حول كل نبت .

أما أبوه فكان رجلا ضخيم الجثة ، تبدو عليه القوة والمهابة . شعرات شاربه الأسود المسترخى كأنها مصنوعة من الأسلاك لم تتخللها شعرة بيضاء .. وكان أكو لا يفاخر بأنه أكل ، وشديد البطش بامرأته ويفاخر بأنه يفعل ذلك ، وعندما كان يصرخ في وجهها لسبب ما كان الصبي يراها وهي تكاد تذوب مثلما تفعل قطعة الزبد إذا وضعت على النار . وكان يخاصمها كثيرا ، فإذا دخل الدار وأراد شيئا طلبه وكأنه يوجه الأمر إلى الهواء ، أو إلى « جنى » من شياطين سليمان فيقول مثلا : « الغدا .. الملابس النظيفة .. شال عمامة آخر غير هذا .. » فتسارع الزوجة إلى إجابة هذا المطلب في صمت مطبق .. وكأنها آلة .

ولما دخل عليها أخوها ذات يوم ورأى آثار الذل على وجهها ، ثار ثورة كبيرة واتهمها بأنها لا كرامة لها . فسأله وقد شحب لونها :

— ولماذا أنا فاقدة الكرامة ؟

— لأنك تعاشرين مثل هذا الرجل .

فأجابت في هدوء :

— طيب .. وماذا تريد مني أن أفعل ؟

— أن تخرجي معي ، فإن لك أهلا .

فردت بهدوء أكثر ويدها على ذقنها :

— أخرج معك لأعود إلى هنا ثانيا ، أو أخرج معك لأبقى عندكم إلى

الأبد ؟

وكان الصبي على مقربة منهما .. يعيث برمل ندى يعقد منه بناء على هيئة ضريح لأحد الأولياء .. ولما سمع النقاش جمدت عيناه على وجه خاله

وظل — كما كانت أمه — في انتظار الرد . لكن الرجل ظل يتلفت في كل اتجاه قبل أن يتكلم ، وأخيرا قال لها وهو يهز كتفيه :  
 — آه .. يظهر أنك لا تحبين إلا من يقسو عليك .. إنني أبذل للتي في داري كل مودة ، وهى مع ذلك تحزم ملابسها إلى بيت أهلها غاضبة مرتين في كل عام .. رحلة الشتاء والصيف ، وأنت يا أختى .. تلاقين من هذا الرجل كل عناء ، ولا تفارقين داره أبدا .  
 وبعد فترة صمت قال :

— أنا حائر فيما أقوله ، وأحسن كلمة تقال لمثلك هى « سلام عليكم » .

ورفع كفه إلى رأسه في يأس وولاهما ظهره وانصرف .  
 وفي إحدى أمسيات الصيف والناس نيام فوق الأسطح من شدة الحر ، دخل الزوج إلى داره ، ونادى كعادته في أيام الخصاص بصوت غاضب وأمر مبهم وكأنه يخاطب الريح :  
 — عشا ..

وجلس على حصير في ضوء القمر ، في اللحظة التي نهضت فيها الزوجة سريعا إلى مكان من الدار تحضر طعاما . وكان الصبي راقدًا على قرب وفوق جسمه غطاء خفيف .. ولم يكن نائما تماما .. لأن النوم طار من عينيه عندما سمع والده وهو يخاطب الريح طالبا العشاء . ثم سمع كرازة من القلة بطريقة تجمع بين الجلجلة والارتشاف ، وصوت صينية من الصاج توضع على الحصير ، وصوت الخبز الجاف وهو يتكسر ..  
 ولم يكن هناك كلام ، ولا صوت إنسان آخر يشاركه طعامه . وفتح الصبي عينيه في حذر فرأى وجه أبيه واضحا ، لأن ضوء القمر كان يغمره

— ١٠٢ —

وهو جالس ، وأمه على مقربة من المكان خدها على كفها .. وضفادع تنق  
في صمت الليل . ودجاجات فوق رصة من الحطب تقرر في سكون  
يحسدها عليه بعض أبناء آدم ..

وأصاب الصبي عناد فلم ينم حتى يرى نهاية المطاف بين رجل يأكل في  
صمت وامرأة تجلس على هيئة الخزاني .. وودّ لو أنه كان كبيرا فقام وأخذ  
من أمامه كل شيء . لماذا يفعل في أمه كل هذا ؟

ورفعت أمه الطعام ، ورأى والده يخرج علبة التبغ ويلف سيجارة  
بأناقة وتؤدة ، ثم أشعلها ونفخ أول نفس جذبه وهو رافع وجهه إلى  
القمر ، قبل أن يوجه الكلام إلى زوجته ليقول :

— اسمعى .

فسمعت دون أن ترد . فاستطرد :

— هل سمعت حكاية جحا ؟

فقالت في عجب وشوق :

— ماله ؟

تقلب الصبي من جنب إلى جنب .. في شوق .. ليسمع حكاية جحا  
الذى اشتهر بكل طريف ، ولا بد أن والده الليلة سيكون ظريفا مثل  
جحا ، مادام قد اختار هذا النوع من الحديث . وخاصة عندما سمع  
ضحكة ضحلة تنبعث في فضاء السطح .

قال الزوج :

— نعم . رأى أهل البلد مرة من المرات جحا ماشيا على الطريق العام  
ومعه حمار ورحى وعلى ظهر الحمار خرج ، وجحا يحاول أن يحمل الرحي  
في الخرج الذى على ظهر الحمار ، والذى يعملها الناس عادة أن يضعوا كل



— ١٠٣ —

فردة من الرحى فى ناحية من ناحيتى الخرج ليحصل التوازن . ولكن جحا  
— الله يرحمه — كان يضع الرحى بفرديتها فى ناحية واحدة فيقع الخرج  
والرحى على الأرض ، فيميل جحا ويأخذ الخرج ويعيده إلى ظهر  
الحمار ، ثم يحمل الرحى ويعمل ما كان يعمل من قبل . وراه أحد المارة  
فضحك منه وقال له :

— يا جحا يا مغفل ، ضع فردة هنا وفردة هنا ، ليحصل التوازن  
ويسلم ظهر الحمار . أما هذه الطريقة فلا .

فرد عليه جحا ساخرا :

— وأنت مالك يا سخييف ؟

وكنتم الصبى ضحكته ، وخجل أن يظهر مستيقظا بعد أن ظن أبواه أنه  
نائم ، وصاح ديك كأنه لحقه الفجر ، ثم عاد السكون فغلب على الليل  
نقيق الضفادع . وتوقف الزوج عن الحديث كأنما يستثير زوجته لتسأله  
عن بقية الحكاية .. فلما لم تفعل استطرد يقول :

— ومر رجل آخر فنصح جحا نفس النصيحة ، ورد عليه جحا بنفس  
الرد . وأخيرا تجمع الناس من حوله ضاحكين متسائلين ، فقد فهموا أن  
جحا الذكى لم يفعل هذا إلا للحكمة . فلما سألوه قال لهم :

— هل عرفتم الآن أنه من الضرورى أن تكون « واحدة » هنا  
و« واحدة » هنا ، ليسير الحمار ويعتدل الحمل ؟

فأجابوا فى نفس واحد دون أن يفهموا مرماه :

— أى نعم .

فرد جحا مقهقهها :

— حسن .. لماذا إذن لمتمنى عندما تزوجت امرأة أخرى ؟

ولما فرغ الزوج من الحكاية رأى الصبي في ضوء القمر أمه وهي تحبب صدرها بكفها ، وتهتف بكلمة لم يسمعها ، قام بعدها أبوه فنام ، أما هي فقد سهرت تبكي .

وبعد أيام قلائل دخلت الدار زوجة أخرى ..

امرأة ذات صدر وأرداف ومقصوص على الخدين ، تطرّق « بشبشب » في رجليها وبقطعة من اللبان في فمها . ذات نظرة غجرية كفيفة بأن تثير المتاعب بين ساعة وساعة ، ولم ير الصبي أباه يخاطبها كما يخاطب الريح أو جنود سليمان ، بل كان يناديها باسمها في لين ومحبة . وانزوت أمه أكثر فأكثر وأهملت هدامها ، وجاء إليها أخوها ذات يوم وقال لها غاضبا على مسمع من الصبي :

— هيه .. هل بقي شيء ؟ اتركي داره وتعالى معي ..

لكنها سألته نفس السؤال القديم :

— برجة أو بغير رجعة ؟ لقد تزوج بلا خطأ مني ، وليس هناك

امرأة تأكل امرأة . ثم إن لي في هذه الدار أشياء كثيرة — وأشارت إلى ابنها

— ونحن نخوض النار يا أخي لننقذ الذين نحبهم ، فكيف يجوز لنا أن نرميهم

في الحريق ؟ لمن أترك هذا ؟

فرفع أخوها كفه إلى رأسه وهو يقول في يأس وسرعة :

— سلام عليكم .

لكنها بعد انصرافه انزوت تبكي .. فقد تكون المرأة التي تزوجها

أحسب منها عودا وأكثر جمالا ، ولكن .. هل هذا كل ما في الحياة

الزوجية ؟

بهذا سألت نفسها .. ثم عادت تسألها :

— ولو فرضنا أنه هو شخصيا أصابه مكروه ، فهل معنى هذا أن الأمر بيننا قد انتهى ؟

ومصمصت بشفتيها ، وأمسكت بالعود تعبت به في الأرض وكأنها لم تفتن إلى أن الصبي على مقربة منها ، فقد نسيت في همها كل شيء حتى نفسها ، لكنها فوجئت بكفه الصغيرة تربت على خدها الأعجم وهو يقول لها في فرحة ولهفة من يحمل هدية إلى أمه :

— أمى .. أمى .. إن أبى قد تزوج ، وأنت حزينة لذلك .

— من قال لك هذا ؟ أنا لست حزينة .

— لا .. أنت حزينة ، وأنا عندي فكرة لكي تعودى مسرورة .

فتفتحت الأم عينيها ونفسها للصبي ، وأقبلت تسأله :

— قل يا بنى .

فأجاب في حماسة :

— تزوجى يا أمى .. تزوجى أنت الأخرى ، مادام هو قد تزوج .

فوضعت كفها على فمه وهي تكتم ضحكها ثم قالت له :

— لا تقل هذا ، هذا عيب .

فرد مدهوشا :

— عيب ؟ .. واشمعنى هو ؟

— هس .. لا تتكلم فإنه قادم .

ففر الصبي إلى الخلاء يجمع الصمغ من الأشجار ، ويطأ الحشرات التي

لا يستطيع أن يصيدها .

. ولم يمض عام حتى مرض الأب مرضا عضالا ، وأبدت الزوجة

الجديدة جزعا عليه ، حسبته كل من رآه في أول الأمر نارا من اللهفة

والخوف على الأحباب ، فلما أدركت بعد عدة شهور أن الأمر مفروغ منه وأن هذا الرجل ميت لا محالة ، لم تعد تحسن القيام على خدمته فنحاه عنها في غضب .

أما الأولى .. تلك التي كان يخاطبها وكأنه يخاطب الهواء ، فلم تكن تذكر إلا حسناته ، وكأنها تحمل على كتفها الخرج الذي وصفه في قصته التي رواها وهو جالس على الحصير في ضوء القمر ، عندما أراد أن يقول إنه سيتزوج .. لكن الناحية الأمامية — حيث ترى عيناها كل شيء — لم يكن فيها إلا كل جميل ، وإذا كان جمالها العادي قد أصبح زوالا بمرور الزمن ولنجاب الأولاد ومشاكل الدار ، فماذا صنعت له المحظية الجديدة ؟ وبعد مرض طويل رأى الصبي والده القوى ذا الشارب الأسود الذي يبدو وكأنه مصوغ من الأسلاك .. رآه يموت .. ورأى الزوجتين تتفقدان لأول مرة .. لكن على البكاء عليه .

ولما مر الزمن وتفرق أفراد الأسرة كما تتبعثر حبات العقد وأصبح الصبي ابن عشرين عاما ، سهرت الأم ذات ليلة تحكى له هذه الذكريات .. وكان ذلك في نفس الدار التي ولد فيها ، وذات صيف على حصير تحت ضوء القمر . ولما سأها الشاب متعجبا :

— لماذا كنت تتحملين كل هذا يا أمي ؟

قالت في ابتسام :

— لأنني لم أكن متزوجة رجلا واحدا .

فشهق سائلا :

— كيف ؟

— كيف ؟ .. أبنائي كلهم أزواجي . لقد رأيت ذات ليلة من ليالي

الشتاء قطرة اكتسح المطر مرقدها و مرقدها أبنائها على سطح الدار ، فإذا بها تحملهم بفمها لتقلعهم إلى مكان آخر ، ولم يكن شيء قادرا على منعها عن ذلك ..

واستطردت وهي مطرقة :

— وكنت كلما شعرت بهزيمتي أمام الغضب من زوجي ، تذكرت أنني على الأقل أعقل من هذه القطرة .. لكن .. ألا ترى أنه كفر عن كل شيء حيالي قبل أن يموت ؟ .. لقد خصني بوصية .. بقطعة من الأرض .. لعله كان يريد أن يعلن ندمه ويطلب مني أن أسامحه .. لكن .. إذا كنت يا بني قد غفرت له وهو حي فكيف لا أغفر له وهو ميت ؟ ثم .. إن الذين يسامحون لا يطلبون ثمنا لذلك .. رحمه الله .

وقبل أن تقوم الأم إلى صلاتها كان الشاب يبتهل في سره :  
— اللهم ارزقني زوجة مثل هذه .. وأعدك يا رب أنني لن أظلمها .

---

## أملان يتحققان

حين كنت مدرسا في مدرسة « صفت » الإلزامية وأنا في صدر شبابي ، لم يكن يداعب أحلامي إلا أملان : أولهما أن أنتقل مدرسا في مدرسة قريتي فأرتاح بذلك من ركوب الحمار كل يوم في الصباح الباكر ذاهبا إلى المدرسة — وثانيهما أن أتزوج بنت خالي التي سترث عن أبيها ثلاثين قيراطا من الأرض زيادة على ما تلبسه من الذهب .

وكان هذان الأملان يقتسمان وقتي مناصفة ، ففي النهار أفكر في نقلي إلى مدرسة القرية ، وفي الليل أفكر في زواجي من بنت خالي . وكنت أتمس إلى تحقيق أهدافي هذه ما يلتمسه الناس عادة من وسائل .  
ففي المدرسة أعمل على أن تكون العلاقات بيني وبين الناظر والمفتش ، دائما على ما يرام ، وفي حياتي العادية أعمل على أن تكون العلاقة بيني وبين خالي وامرأة خالي على غاية من الصفاء والمودة .

لكن الشيخ غالي المدرس في مدرسة « صفت » نفص على النسق الأول من حياتي ، أعنى حياتي المدرسية . وكان الشيخ غالي رجلا معتزا بشخصيته ، ماهرا في خلق الأكاذيب ، ومن إحدى القرى البعيدة الواقعة في أطراف مديرية البحيرة ، وقد أوهمنا بوجه عام أنه قادر على النفع والضرر في محيط « المدارس » ، لأن له صلات عديدة ومن كل نوع بالمفتشين والمراقبين والنظار والكتابة الإداريين كذلك .

وأوهم ناظر المدرسة بوجه خاص أنه قادر على أن يفعل أشياء خطيرة .  
وعضد أقواله ذات يوم بأن أذاع علينا جزءا من حركة التنقلات المقبلة قبل

أن تذاع رسميا ، وصادف أن كان معظم ما قاله صحيحا . ومنذ ذلك التاريخ أسلم له ناظر المدرسة قياده ، واستحلى مائدة الغداء الشهرية التي يدعوها إليها فيأكل عليها ألوانا تصنعها زوجة الشيخ غالى بيديها ، بعد أن تطلع على كتاب يعتبر مرجعا ضخما في فن الطبخ . وفي صباح السبت يعود الناظر ليحدثنا عن الأعاجيب التي رآها على المائدة .. ثم .. ثم يذم الزمان الذى خلق فيه ، فقد كان مبكرا أكثر من اللزوم :

— لماذا لم يتأخر ميلادى يا أولادى فأتزوج طقظوقة مثل حرم الشيخ غالى تجيد صنع الروانى ، وتحسن تحمير البفتيك ؟  
ويضحك الناظر عن فم سقط بعض أسنانه ، ثم يضع يديه على رأسه ليكبس العمامة فيه .

وهنا يرد أحد زملاء فيقول فى أسف مصنوع : يا خسارة .. فيقول الآخر : فيم الخسارة ؟ لأن الناظر تقدم ميلاده أو لأن الشيخ غالى لم يدعنا إلى الغداء ؟  
فنضحك .

على أن مثل هذه الأعمال كانت تحيك العلاقات بيننا ببطء ، كما تتجمع رواسب الأنهار فتصنع الجزائر . لأن الشيخ غالى استولى على زمام الأمور فى المدرسة بطريقة مستورة حتى أصبح وضع الناظر فيها بالمؤجر « من الباطن » . وبدأ المستور ينكشف حين غاب عنا زميل مرض بضغط الدم والسكر . معا فمنح أجازة طويلة ، وبدأ الناظر يوزع حصصه على المدرسين ولكن بإشراف غالى طبعاً ..

وبما أننى أركب حمارا فى عودتى وذهابى إلى المدرسة لأقطع بأرجله البليدة كل يوم خمسة كيلو مترات ، فقد كنت حريصا على ألا آخذ

الحصة الأخيرة لأستطيع أن أعود آخر النهار في وقت مناسب . لكن الشيخ غالى استثقل ظلى « لله فى الله » كما أعلنها ذات يوم . وكان جدا مغلفا بمزاح حتى إنه قرأ الآية الكريمة : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ﴾ . وكانت جارحة .. لكننا ضحكنا جميعا وضحكت مع الضاحكين .. وكتمت غضبى لأنها نكتة .

ثم أصبحنا بعد ذلك أعداء . سلط على الناظر حتى أرهقنى بمحصر زميل الغائب .. وأقام وليمة شهرية نحر فيها ديكا روميا عريفا فى جنسيته ودعا إليها كل الإخوان وأهملى . وجئت أناقشه بعد ذلك فى أمر فخالفته فاتمنى أننى ناقد عليه لأشياء تافهة .. ففهمت وفهم الحاضرون أنه يقصد الوليمة ؟ .. فتغاييت حتى لا أكون سخيفا ..

لكننى لم أملك إلا أن أكرهه ، لأن القلوب لا تستطيع أن تنكر ما يلمس شغافها وهى أولى من الأجسام .. التى لا تستطيع أن تنكر ما يلبس جلدها .:

\*\*\*

وبقيت فى مدرسة « صفط » معذبا بآمالى وأفكارى .. ومعاكسة الشيخ غالى ، حتى لاح على الأفق العام شىء وجدت نفسى مضطرا إلى أن ألقا إليه ، كما كان الناس يلجأون فى ذلك الحين .

كان الاستعداد قائما على قدم وساق لإجراء الانتخابات لمجلس النواب ، وقال لى خالى : إنها فرصة .. شد حيلك .. همتك يا بنى ، يمكن تنتقل للمدرسة بلدنا ..

وكانت الدعاية الانتخابية من أشق الأشياء على ومن أثقلها على نفسى .. لكنى أجبرت عليها إجبارا ، وكان خالى وامرأة خالى وبنت



خالى كذلك دوافع قوية تضرب بأيديها على ظهرى من الخلف لأتقدم .  
وسهرت أوازن بين المرشحين لأرى أشدهم بأسا وأقواهم نفوذا وأقدرهم  
على نقلى إلى مدرسة بلدى إن قدر له النجاح ، حتى استقررت على رأى .  
وانتهت الانتخابات بعد أن أصبت بالتهاب فى حنجرتى من كثرة  
التهاف ، وبكدمة فى مؤخرة رأسى من رمية حجر ، وبخصومة بينى وبين  
أفراد أسرتى لأننى شذذت عن إجماعهم ، وبعداوة بينى وبين عمدة القرية  
لأننى كنت ضده .

ثم بتنا نترقب إعلان اسم النائب الجديد ..  
وكانت كارثة ..

لم ينجح الرجل الذى هتفت له ، ومن ستر الله عليه وعلى أولاده أنه  
أخذ التأمين ، وحبست نفسى فى الدار خمسة أيام أخذتها أجازة مرضية ،  
ثم عدت إلى المدرسة بعد ذلك لألقى السخريه من خصمى الشيخ غالى ،  
ولأسمع أخبار الوليمة التى دعا إليها كل الإخوان احتفالا بنجاح المرشح  
الذى دعا له فى دائرتنا ، ولو أن الشيخ غالى غريب عنها لأنه من شمال  
البحيرة .

وبقىنا ونحن فى قرانا نتلقف أخبار الحركة الجديدة للمدرسين ،  
وكننت يائسا من أمر نقلى فبقيت ساكنا . وكنت راجعا من الحقل عصر  
يوم من الأيام أطوح عودا من الخيزران فى يمينى حين نادى على واحد من  
أبناء قريتى :

— على أفندى .

— نعم .

— انتظر حتى ألحق بك .

— ١١٢ —

فوقفت حتى لحق بى وحتى قال فى أسف :

— صحيح ؟

— عن أى شىء تتكلم ؟

— عن نفيك ؟

« وابتسم »

— أنا ؟

— نعم أنت . بلغنى أنك نقلت إلى مدرسة إدكو .

— يا نهار اسود .. دع المزاح إن كنت تمزح ..

— لست أمزح .. هل نسيت معركة الانتخابات ؟

فلم أرد ، واسود النهار فى وجهى ، لكننى تجلدت ، وحين علم خالى حوقل وتهدثم بصق فى الهواء ، أما امرأة خالى فقد لعنت أبا نائب الدائرة واستعانت عليه بالله ، وأما بنت خالى فقد تشاغللت بعد غوايشها الذهبية ..

وحين ذهبت إلى مدرسة إدكو التى تعتبر منفى بالنسبة لبعدها عن قرينتنا ، قابلنى الفراش العجوز عند باب المدرسة . ولما عرفته بشخصيتى وأنتى أنا المدرس الجديد المحنى على يدي كأنه يريد أن يقبلها ، وسألته عن الناظر فقال :

— آه .. فى حجرته ، من يدرى ؟

— وما اسمه ؟

— الشيخ غالى .. نقل حديثا مثل حضرتك .. تفضل ..

فضحكت وصفقت وتشاءمت وتذكرت الماضى . وتراقص أمامى المستقبل ، كل هذا قبل أن أعبر عتبة المدرسة ، فقد نقلنا نائب واحد .

— ١١٣ —

ولكن الشيخ غالى استفزنى بضحكة عالية غير مفهومة ، وقدم إلى كرسيا في حجرته وقال مازحا :

— اجلس .. اجلس يا على افندى .

ثم طلب لى فنجالا من القهوة ، ومر النهار ولم يحدث فيه شيء .  
وفى المساء مر على الناظر فى حجرتى التى أجرتها ، وقال لى بعد أن شرب عندى الشاى .

— اسمع يا أخى . نريد أن نرسم برنامجا مشتركا .  
فأجبتة :

— واسمع يا أخى . أنا مستعد أن أجعل الحاضر امتدادا لماضيها المنغص .

— كيف ؟ ولماذا تقول ذلك ؟

— كيف ؟ فى المرة السابقة اعتمدت أنا على الناس فضرونى ونفعوك حتى التقينا هنا ، فلا مناص لى إذن من أن أعتمد على الله فى هذه المرة .  
— يعنى لينفعك ويضرنى ؟

— لينفعنى فقط ..

فمال على واحتضننى وقبلنى وقال :

— ثق أئننى كنت أحترمك .. من زمان .. حتى فى الأيام التى كنا فيها فى « صفت » ، لأنك تحب أصدقاءك عن عقيدة وتكره أعداءك من عقيدة ، وهذا من طبعى كذلك .. صدقنى ..  
فحملت فيه قائلا :

( حلم آخر الليل )

— ١١٤ —

— صحيح ؟

— بشرقي وشرفك .

— اتفقنا إذن .

\* \* \*

وبعد ذلك بعامين ، يوم أن صدر أمر نقلى إلى مدرسة قریتی وانتهى  
خالى من إعداد جهاز بنته لتزف إلى — كان الشيخ غالى يودعنى على المحطة  
مع عدد من الزملاء وعيونهم مملوءة بالدموع . وأطللت عليهم من السيارة  
وأنا أبكى .

## بركة مخزن القمح

كان محصول القمح في هذه السنة رديئا غير كثير ، جعل النفوس الشحيحة تزيد شحا ، والنفوس الكريمة ، أو معظمها على الأقل ، تعطي في غير سخاء .

لكن عم عبد العزيز ، الرجل الغني النفس ، عزل من قمحه قبل أن يدخله المخزن ما يخص الله منه ، ووضعه في مكان بعيد عن متناول أيدي أولاده . ثم نادى زوجته الحريصة وقال لها في اهتمام شديد وبصوت خافت :

« اسمعى يا ستي . هذا القمح لم يعد ملكنا الآن ، إنه ملك الله ، رزق قبضه لبعض عباده لكنه سيجريه لهم على أيدينا ، أنا وأنت الآن أشبه ما نكون بساعى البريد ، هل تعرفين ساعى البريد ؟ إننا سنوصل رسالة أو طردا للفقراء والمساكين ، وأنت تعلمين أنني مسافر غدا في الصباح الباكر لبعض شعوثي في المديرية ، وربما غبت هناك بضعة أيام . لذلك أصبحت أنت الآن مسؤولة ، مكلفة ووكيلة عني في توزيع زكاه زرعنا ، فوزعها بنفس سخية لتقيم البركة في مخازننا .. وزعها بلا تأخير ..

ثلاث كيلات لأُم جمعة لأنها ترى يتامى ، وقد أوصانا الله بمعاونة اليتيم ، ووكيلة واحدة لعم مبروك الفقيه المكفوف ، فقد أوصانا الله بمعاونة غير القادرين ، ووكيلة واحدة لخادم المسجد ، لأن خدمة العابد عبادة ، وهو رجل فقير ، ووكيلة واحدة لأُم شعبان التي فقدت كل أولادها ، وقد

أمرنا أن نواسى المنكوبين بأقوالنا وأعمالنا .  
كم كيلة إذن تكون صدقة هذا العام يا ستى ؟ .. فأجابته وهى  
شاردة :

— ست كيلات من القمح ، يعنى نصف أردب .  
فهز رأسه وقال لها :  
— هذا هو مال الله وهو أمانة بين أيدينا ..

وكان صوت الرجل منخفضا يشوبه حرص وحذر . كان يذكر من  
يسمعه بصوت أحد الأطباء حين يحذر شخصا ما من أكل طعام فاسد ،  
وبعد أن سكت نظر لزوجته بعينين فيها لمعان السيوف ، ثم بات ليلته .  
ولما أصبح الصبح سافر فى وقت باكر إلى المديرية لقضاء بعض شئونه  
الهامة .

وعاد الرجل من سفره بعد أيام ، فذهب توا إلى المخزن وتفقد القمح  
الذى لا يخصه ، فوجده قد وزع فحمد الله ونسى الموضوع ، وشغل  
الرجل كما يشغل كل الناس بأمر الحياة ، حتى انقضى شهران .  
وكان ذلك مساء بعد أن غابت الشمس بقليل ، وعم عبد العزيز راجع  
من الحقل على ظهر دابته وأمامه سلة فيها أنواع من الخضراوات أتى به  
زرعه .

رأى الرجل على بعد امرأة تتعثر راجعة إلى القرية ومن خلفها ثلاثة  
أطفال متلاحقين فى العمر ، لكن على كل منهم طراوة الطفولة . وكانت  
المرأة تتكلم بصوت مرتفع أو تنصح أو تخاصم ، وكان صوتها يقترب من  
الراكب قليلا قليلا ، حتى إذا لم يبق بينها وبين عم عبد العزيز سوى بضعة  
أمتار عرف أنها أم جمعة ، أم اليتامى الضعيفة الصحة ، الفقيرة المسكينة

التي تركها زوجها في منتصف الطريق وانتقل إلى العالم الآخر .  
كانت تلوم أحد أطفالها على عدم مهارته في العمل ، والطفل يردّ على  
لومها بالبكاء . وكان هذا في اللحظة التي حاذت فيها ركوبة عم عبد  
العزیز أم اليتامى وأولادها .

ألقي عليهم تحية المساء ، فردّت الأم باهتمام واحترام ، ودعت له  
بإخلاص أن يديم الله عزه ويكفيه شر المرض ويعيد عليه الأيام بخير .  
وكانت لهجة الأم مشحونة بالتأثر حتى كأنها مغموعة بالدمع ، ولعل هذا  
كان راجعا إلى ضيقها الحاضر من تصرف ابنها الباكي .

واقتسم عم عبد العزیز وهو راكب على ركوبته ما في السلّة من  
الخضراوات بينه وبين الأم ، فكان هذا سببا جديدا لاستئنافها الدعاء له  
بأن يديم عزه وآلا يحرم أولاده منه ، ثم فاضت عيناها بالدموع .  
وهنا تذكر عم عبد العزیز أنه كان من الواجب أن يرسل لمثل هذه الأم  
كمية من القمح أكثر من الكيلات الثلاث ، التي أرسلها لها في الموسم منذ  
شهرين .

ولما كان هذا الرجل من الذين لا يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى ، فقد  
قال لأم جمعة معتذرا في حذر :

« كان بودى يا أم جمعة أن أقدم لك من مال الله أكثر مما قدمت ،  
ولكنك تعلمين أن المحاصيل في هذه السنة لم تكن جيدة ، ولكن ..  
» معلّش » .. وعند الله مغام كثيرة » .

فقال المرأة بحرارة وكسوف :

« لا يا سيدى ، كتر خيرك ، فضلك علينا ، أنا دائما بادعى لك مش  
علشان حاجة ، لكن .. أصلك راجل طيب » .

وهمّ أحد أبنائها أن يقول شيئا ، فسارعت أمه وغمزته في كتفه ليسكت . فجعل فعلها هذا الشك يتسرب إلى قلب عم عبد العزيز ، شك في تصرفات ترك غيره يعملها ، فساق ركوبته حتى وصل إلى الدار وتناول العشاء بوجه غير مبتسم وفكر غير حاضر ، ثم استأذن وخرج من الدار .

وعند باب المسجد قابل الشيخ مبروك الفقيه المكفوف وسأله في قلق : « هل وصلتكم الأمانة يا شيخ مبروك ؟ » .

فضحك الرجل ضحكة مكسوفة ، وتكلم كثيرا كأنه يريد أن يبين بساطة الموضوع ، ثم قال له : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » وبعد أن سكت قليلا قال : « نفسك معانا على كل حال يا حاج عبد العزيز ، أنا أقرأ لك الفاتحة عقب كل فجر بسبب وبغير سبب لأنك رجل طيب » . ثم ضحك ضحكة المحروم .. وفهم الرجل أن القمع لم يصله . وسار الشيخ مبروك يتحسس الطريق بعصاه ، وكان وقعها يصل إلى أذن عم عبد العزيز وهو واقف في مكانه حيث كان كأنه نسي أن يمشى . ثم آن لعم عبد العزيز أن يترك مكانه ويذهب إلى خادِم المسجد وطرق عليه باب داره ففتحت له زوجته ، فسألها قائلا : « هيه .. هل وصلتكم الأمانة ؟ » فهزّت رأسها تقول لا ، وكان وجهها الفقير على الرغم من ذلك هادئا مبتسما تبدو عليه الطيبة تحت نور المصباح الصاروخ الذى كان نسيم الليل يلعب به .

ومن هناك سار عم عبد العزيز حائقا مهموما ، وتوجه إلى دار أم شعبان الثاكلة التى فقدت ولديها ، وطرق الباب فلم تردّ عليه ، وألحّ في الطرق فلم تفتح له ، وكان الليل ساكنا فاستحيا وانصرف .



— ١١٩ —

دخل عم عبد العزيز داره بعد العشاء بكثير ، وكان كل من في الدار نائمين وليس هناك صوت إلا نباح كلبه فوق السطوح ، وصوت الوز الذي يقطقط وهو راقد . ونادى الزوج على زوجته فاستيقظت من نومها وأحست أن هناك أمرا غير عادى ، فسألته في جزع :

— خير ..

فقال لها :

— خير .. فقط ، أحد الدائنين واقف لنا على باب الدار ويلج في طلب ما علينا له ..

فقال في تعجب :

— « أحد الدائنين .. يلج في طلب ما علينا ؟؟ .. كيف هذا ؟؟ لسنا مدينين لأحد » .

فأجابها زوجها :

— « بالعكس ، علينا دين ثقيل ولكننا ماملون » .. فلم تفهم شيئا ، فاستطرد : طبعاً ، نذكر ما للناس وننسى ما لله ، هل وزعت قمح الله على أصحابه من عباد الله ؟ » .  
فبلعت ريقها ولم ترد .

فقال بخشونة وبصوت عال : ردّى ..

فهزت رأسها بالنفى ، فقال لها : ولماذا فعلت كل هذا ؟؟

فمرت فترة صمت قبل أن تقول لزوجها بخوف :

— « أنت تعلم أن المحاصيل كانت رديئة ، وأن الأفواه التي تأكل الحبوب في دارنا كثيرة مثل المطاحن ، وقد استكثرت أنا نصف أردب من القمح أوزعه على الناس ، لذلك بخلت نفسي به فأدخلته المخزن ثانيا بعد أن

سافرت إلى المديرية ، ثم خرجت من أمامه خائفة تاركة له المكان .  
ولما أصبح الصباح كان عم عبد العزيز على باب مخزن القمح ، فتحه  
ودخل وفي يمينه كيلة ، وفي يساره غرارة ، وخرج بعد مدة ونادى أحد  
أولاده الأقوياء ليساعده على حمل القمح الذى كيله ، ثم أخذ عم عبد  
العزيز في توزيع القمح على المستحقين .

قالت زوجته ودمعة على خدها ، وحيرة على وجهها :

— ماذا تفعل يا عبد العزيز ؟؟ حق المساكين عندك نصف أردب ،  
فما لك أخرجت من المخزن أردبا كاملا ؟؟ موسم القمح قد فات والغلة  
قليلة والأفواه كثيرة ، فيكون معنى هذا أننا لن نجد حبوبا لبقية السنة .  
فقال لها كأنه يؤدبها :

— اسمعى ! اصمتى ، فى عملى هذا عقاب وصدقة وتكفير .. عقاب  
لك على طمعك فى مال الله ، وصدقة لأنها صدقة ، وتكفير حتى يغفر الله  
لى عدم سهري بنفسى على توزيع ماله على عبادة ، هل فهمت ؟؟ .. توكلى  
على الله إذن وانصرفى .

\*\*\*

وفى هذا الصيف نفسه لم يكن لأهل القرية — ومن بينهم عم عبد العزيز  
— حديث إلا ارتفاع فيضان النيل . كانت موجة جديدة من الفيضان تمر  
على هذه القرية الواقعة على الشاطئ ، وكان الفلاحون ينظرون إليها بدعر  
وخوف كأنها بواذر طوفان .

ودخل عم عبد العزيز على زوجته ظهر أحد الأيام وقال لها :

— إن القرية قد خسرت محصول الذرة الصيفى المزروع على النيل ،  
لأن الماء ارتفع فى الليلة الماضية حتى أتى على كل ما فى الحقول .

— ١٢١ —

ثم أخذ يشرح لزوجته كيف أن أعواد الذرة أصبحت مغموسة إلى نصفها في الماء . أشبه بالغريق الذى لا يعرف العوم ، ولا يحمل طوق نجاة .

وبدا الوجوم على الزوجة ، فقال الزوج ساخرا :  
— لا تحزنى فإنها أرزاق ..  
فسألته :

— وأين هى هذه الأرزاق ؟؟  
فقال لها :

— الناس يخوضون الماء ما استطاعوا ليجمعوا للماشية أعواد الذرة الغريقة ، أليست هذه أرزاقا للمواشى التى شق الله أفواهها قد ضمن لها رزقها .. لا تحزنى يا ستى .

فسألته فى وجوم : ولم ينج حتى فدان واحد ؟؟  
فقال مؤكدا :

— لم ينج حتى قيراط واحد .. اسألى ..

فقالت : وهل سيرتفع الماء من جديد ؟ فأجاب ضاحكا :

— ليرتفع أو لينخفض ، فقد قضى الأمر ، لا تكونى مثل التى كسرت بلاص العسل فقعدت تبكى على الفخار ، ونسيت أن تراب الأرض ييرق أمام عينها بالعسل ..

قالت الزوجة فى حسرة :

— الحمد لله ، وزعنا القمح وأغرقنا الذرة .

فقال ليثير أحزانها :

— صحيح ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثلاثة فدادين ذرة تقاوى ،

— ١٢٢ —

وعرق ، ومصاريق ، وأخيرا .. غرق ، له الأمر .  
فاعترضت قائلة :

— هل تضحك من المصائب ؟؟  
فقال :

— أنا أضحك من سرورى بفعل الله . « ما عندكم ينفد وما عند الله  
باق » . هل تتذكرين أردب القمح ؟؟ لقد صار اليوم ثلاثين أردبا من  
الذرة ، من ثلاثة فدادين تملكها فى أرض الجزيرة ، على شاطئ النيل ..  
الذى أغرق معظم الأراضي فى هذه المنطقة ، الماء وقف عند أرضى .. لم  
يشأ أن يغرقها .. كأنها عالية ، كأنها جبل ، ولن يرتفع بعد ذلك ،  
خلاص ، توقف الفيضان .. هذا لأننى أقرض الله قرضا حسنا .. هل  
فهمت أيتها البخيلة ؟ .. افهمى ..

ورجع عم عبد العزيز يضحك من جديد .  
أما الزوجة فقد كانت ذاهلة ، عيناها محمقتان ، وفمها مفتوح  
والكلمات متجمدة فيه ..

## بقية العمر

كانت القاعدة عند صاحبة هذا البيت الصغير هي .. ألا تسكن عزابا ..

ولكننى كنت الشخص الوحيد الذى شذ عن القاعدة ، لأن أمى شاركتنى السكن فى الأشهر الأولى من المدة التى أقمتها فى هذا البيت . وكانت تسافر وتعود وتغيب وتحضر مددا متفاوتة الطول ، وترجع حاملة معها لصاحبة البيت هدايا من الريف تشرح صدر سكان المدينة . وكانت هذه الهدايا مدعاة لأن ترى صاحبة البيت الجانب الحسن من أخلاق طوال مدة إقامتى عندها .

والرواق الذى كنت أسكنه عندها وأنا طالب كان ذا ثلاث حجرات ، شغلت أنا واحدة منها وشغل الحجرتين الباقيتين رجل طيب كان يدعى « عم زكى » رب أسرة فقيرة صغيرة العدد لا تعدو أن تكون أبوين وولدا وبتنا .

وبحكم الجيرة والاشتراك فى دورة المياه وصالة الرواق كذلك ، نشأت علاقة لطيفة بين أمى وأم صلاح زوجة عم زكى . وكان هدايا الريف سحر ساحر أيضا ، وأخذ شديد عند عم زكى بالذات . كان يحب البسيطة المصنوعة من دقيق الذرة الطازج المنخول .. ودقيق الذرة عند الفلاحين شئ غير غالى الثمن ..

وفى المدة التى كانت أمى تغيبها عنى كنت أجد من أم صلاح شبه أمومة تحوط بها شابا جاوز العشرين ، ومن سن ابنها بالضبط .

وكانت في الواقع امرأة مستقيمة كحد السيف ، عاشت في بيت عم زكى كما يعيش القبطان العظيم فوق ظهر سفينة صغيرة قديمة تالفة العدة . ومن خلال الحوائط « البغدادى » والنوافذ المفتوحة زمن الصيف ، والعبور فى الصالة إلى دورة المياه ، والعلاقات العادية المألوفة ، والمناقشات التى لا تقبل الستر بطبيعتها ، من خلال هذا كله عرفت أحوال هذه الأسرة .

وكان عم زكى يشغل « منجدا » ولم يكن له دكان مستقل مع أنه قد جاوز الخمسين من عمره . ويزعم عم زكى أن العز أدركه مبكرا وارتحل عنه مبكرا ، شأن الحياة وحكم قانونها ، لأن لكل زمان دولة ورجال ، والشمس لا تنير إلا نصف الأرض والنصف الآخر يكون فى الظلام الدامس .

ونقطة التحول فى حياة عم زكى هى مرضه بالربو ، لأن تراب آلاف القناتير من القطن القديم — كما يقول — قد نفذ من تلافيف رئتيه ، وهو لذلك لم يعد مستطيعا مواصلة العمل .

على أن السر الحقيقى فى إعراض عم زكى عن عمله هو كسله ما فى ذلك ريب ، وعلى الرغم من أنه مريض بالربو فإن وجهه مشرق بالصحة يكاد الدم ينبثق من صلعته الحمراء . والشباب حائر فى بريق عينه لا يريد أن يغيب . ولولا أن السوس أتلف أضراسه فخلع منها ما تحت خديه ، فانخسف الخدان على هيئة نقرتين — لبقى لعم زكى قدر أعظم من وسامته القديمة .

كان كسولا نثرارا مهملا أكولا ، من نوع من الرجال يستطيع الفساد أن يتسلل إلى بيوتهم بسهولة .. فالنقود القليلة التى يقدمها لزوجته

والنقود الأقل التى يمد صلاح ابنه بها البيت .. كان عم زكى يريد أن يأكل منها ويدخن ، ويهمل ويرتاح ويحكى لضيوفهم حكايات خرافية عن أيام العز .. أيام كان للمنجد عز الحرير وعظمة القطيفة .. وكانت النفوس سخية والأفراح تقام سبعة أيام بلياليها .. أما زوجته فكانت تضيق بهذا كله وتكتم تنهداتها عن الحاضرين وتدير البيت بطريقة سحرية ، وتقترض ولا يشعر أحد ، وتؤخر أجرة السكن ولا يشعر أحد .. وتطهو أحسن أنواع الأطعمة بطريقة من يحضر خروفا ، وتبتسم وفى قلبها جروح . وكانت تقول لأُمى عندما يفيض بها الغم : إنه لا أمل .. لا أمل إلا فى شيء من شيئين ، فإما تموت فترتاح ، وإما أن يصير ابنها صلاح رجلا من غير طراز أبيه .

وكان لهذه الأسرة موسيقا صباحية تعودت سماعها مثل ألحان الراديو ، كنت أسمع قبقاب عم زكى وهو راجع من دورة المياه بعد الوضوء ، وأسمع تشهداته وتنهداته وابتهالاته إلى الله بطريقة تثير ضجر الإله . وكنت أبتسم وأستغفر أنا الآخر حين أتخيل أن الله لا يريد أن يسمع دعاءه ، لأن عم زكى رجل لا يلتمس الأسباب . وقد رأيت الفلاحين « يبدرون الحب ، ثم يرجون الثمار من الرب » .

وتنبعث من الحجرة الأخرى معركة حول ما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يطبخ وما يجب أن يقدم وما يجب أن يؤخر ، ومن ثنايا هذا كله كثيرا ما كانت تعلو تهديدات صلاح بانقطاعه عن عمله اليوم إذا لم يأخذ قدرا معينا من النقود . ثم أتين « زينب » الأخت وتوسلاتها بصوت مؤنث خافت ، وصراخ الأم ودعاؤها على نفسها بالسكينة ، ثم جئير الأب كأنه الثور فى المرعى .

على أن الأيام السخية الخضراء في حياتهم كانت تعتبر أئموذجا لأيام السعادة البشرية .. فترة أحلى من الراحة بين مغصين والسلام بين معركتين .. كنت أستشعر حلاوة ضحكاتهم على قلبي ، وأكاد أتذوق لذة مضغهم للطعام بصوت عال في الحجرة المقفلة وأنا ماشى عبر الصالة . وكانت أمثال هذه الفترات قصيرة المدى في العادة لا تقع لأسرة عم زكى إلا في الأوقات التي ينسى فيها المرض والثرثرة وينتظم في عمله نوعا ما . وكان « صلاح » امتدادا جيدا لخصال أبيه السيئة ، أما زينب فكانت امتدادا متوسطا لخصال أمها العظيمة . وكانت أم صلاح لا تسمح لبنيتها مطلقا أن تلج على باب غرفتي حتى ولو كانت أمي فيها . وكانت زينب جميلة فقيرة تذكرك حين يقع عليها بصرك بالشجرة الناضجة التي تسقط من على غصنها في طين الحديقة ، فأنت حين تراها تتمنى أن تأكلها .. مفسولة ..

ورثت وسامة أبيها وعينه الملونتين . وكانت تشعر بشيء من الحرية في تصرفاتها إذا كانت أمها في الخارج حتى ولو كان أبوها في البيت . شيء على عكس ما يألّفه الناس . ولكن عم زكى كان مشغولا بمجهول يلهيه حتى عن عمله .

وكان بيني وبينها شيء ما ينتظر فرصته ليظهر . وحين كانت تسنح الفرصة على السلم في لقاء عابر أو في المسكن إن غابت الأم ، كان الجبن والتردد في نفسينا معا يوهنا أن الفرصة القادمة أكثر فاعلية وتمكيننا من أن ننال ما نشتهي . وهكذا حتى ظلت التفاهات غداءنا في الحب .

\* \* \*

وفجأة تقضت الأيام وانتقلت من البيت ..



ومرة أخرى — وكأنا وقع ذلك فجأة — أتممت دراستي وارتحلت  
عن القاهرة .

وكنت أذكر عم زكى كلما رأيت مرتبة أو لحافاً أو وسادة ..  
وأذكر زوجة عم زكى كلما رأيت أحدا ينفخ في قرية مقطوعة ..  
وأذكر زينب كلما رأيت حسناء مغلوبة صابرة على غلبها ..  
ثم عدت لا أذكر شيئا ، ونصلت ألوان أيام التلمذة وانطلقاً البريق  
الخاطف الأخاذ الذى يشوش شعور الشباب في أيامه الأولى ، واعتدل  
الميزان في يدي فعرفت تقدير الأمور .

لكنتنى على الرغم من هذا كله أتمنى على الله شيئا واحدا هو أن أتزوج  
امرأة مثل زوجة عم زكى ، لأنها في كثير من الأوقات كانت قادرة على  
استغلال الصفر ، ولأنها أقفلت بابها في وجه كل شبهة وهى تحت زوج  
ظله كظل النخيل ، لا وارف ولا ظليل .

وتعاودنى هذه الأفكار ثم أنساها .. ثم تعاودنى ثم أنساها .. إلى أن  
حضرت إلى القاهرة في نهاية صيف ، ودخلت دكان الترزى لأفصل بدلة  
جديدة لمناسبة سعيدة هى زواجى .

كنت جالسا أتصفح جريدة اليوم حين رأيت وجهها خيل إلى أننى  
أعرف بعض ملامحه . ولما ابتسم بدت سن مكسورة عند مدخل الفم  
فتذكرت حادثتها فقد كسرهما لصلاح ابن عم زكى أحد صبيان الحارة  
بلكمة ظلت ثارا مدة ثلاث سنوات . ونهضت وأخذته بالحضن ودار  
شريط الذكرى حتى كدت أسمع تشهدات أبيه وابتهالاته إلى الله بطريقة  
تثير ضجر الإله . وكان قصارى كلامنا أن أصر على ألا يقول لى شيئا عن  
أحد : « تعال إلى البيت وسترى كل شيء .. نفس المكان . تعال الليلة

مساء .. » .

ولم أتمكن لظروف طارئة ، فالذين ينزلون المدينة لقضاء حاجات عاجلة كثيرا ما يخذلهم الوقت .

وكان مقررا أن أسافر ظهر اليوم فأحسست بحنين شديد إلى أن أرى هذه الأسرة التي جاورتها عامين كاملين ، وأن أرى صاحبة البيت والسلم المظلم والرواق وحواطه « البغدادلى » فكثير من التوفاه تكون فى حياتنا أشياء ضخمة كما تتكون الجبال من حبات الرمل .

وعرجت على البيت ساعة الضحى ، وكان أول ما صدمنى أن صاحبه غير موجودة . كانت فى مقابر الإمام بمناسبة « طلعت رجب » ، ولما صعدت إلى الرواق كان كل شئ ساكنا فيه . وعند المدخل تقريبا بدت فتاة حسناء واقفة وفى يدها وعاء من النحاس .. ووسعت عينها لأنها أنكرتنى .. فلما سألتها عن عم زكى أدخلتنى فورا إليه وانصرفت هى إلى شأنها .

وكان أول إحساس لمس قلبي بمجرد جلوسى على الكرسي هو إحساسى بالندم . لم يكن هناك داع لأن أرى هذه الأشياء المثيرة .

كان عم زكى جالسا فى الحجرة وحده وفى يده لقمة طرية محشية جبنا يأكلها بسرعة كأنه خارج ، ووضعها على حافة الشباك ثم سلم على وهو « يتمطق » وكان كل شئ فيه منطفئا إلا حركة فمه فى الطعام أو الكلام . عيناه الملونتان كالنجوم الغائرة ولونه الأحمر كالح حائل وشعر صدره باد من الجلباب المفتوح . والمؤل لل غاية أن عوده الطويل انحنى من فوق ، ولما وقف يسلم على كان « قوس المنجد » على مقربة منه مسندا إلى الحائط ، فخیل إلى أنهما أخويان توأمان ولدا فى بطن واحد وتعرضا لحظ

واحد وجرت عليهما أحداث زمان واحدة ..

وتكررت التحية : « ازيك .. سلامات .. » من عم زكى عشرين مرة . ثم تذكر اللقمة فمد يده وتناولها وعاد يتلمظ ويتكلم :  
— « كيف حال والدك ووالدتك وأخواتك ؟ بخير ؟ الحمد لله ..  
أين أيام زمان . وأين بسيسة الدرة الطازج المنخول ؟ كله يتغير .. حكمة الله .. أتعرف من هذه التي قابلتك في الصالة ؟ .. زوجة صلاح . ها . ها . تزوج الملعون بعد وفاة أمه . هل تعلم أن أم صلاح ماتت ؟ .. »

وهنا توقف عن الكلام وابتلع آخر لقمة .. واحتقن وجهه فعاد أحمر كأيام زمان . وبدأ لى كأنه مخبول أصابته نوبة من العقل . ثم اغرورقت بالدمع بقية عينيه . وابتلع ريقه وقال بهمس مؤثر :  
— الله يرحمها .. أنا أتعبتها كثيرا . كنت أتدلل عليها كأننى طفل .  
« فين الكحك بعذك يا عيد ؟ » .. وسكت ..

فقلت : وزينب ؟

— تزوجت . هئاها الله ..

ثم نظر إلى القوس المسند إلى الحائط متبهما له كنظرة الشريك الخاسر إلى شريكه الخاسر ، وقال : أما الصنعة فإنها ظلمتنى . — قلت فى نفسى : بل أنت الذى ظلمتها — واستطرد عم زكى : ولذلك فقد أوصى على الأسطى عزت الترزى الذى يعمل عنده ابنى صلاح — أوصى على أحد زبائنه الموظفين الكبار ليجت لى عن عمل يناسب صحتى ، وبقيّة عمرى ..

وقمت لأدرك القطار .. فتعلق بى قائلا : حتى نشرب الشاى .

( حلم آخر الليل )

— ١٣٠ —

فاعتذرت له ، فاستطرد في حنين : هل تذكر الشاى مع بسياسة  
الذرة ؟ .. هه ؟ .. هل تذكر ؟ فوعده أن أحضر إليه كيلة من الدقيق  
ليعملها بسياسة كلها .

وسار معى إلى الباب فودعته وحملته التحية لصلاح وطلبت منه  
الدعاء . فلما ابتهل إلى الله كدت أضحك لأنه عملها بنفس الطريقة التى  
كنت أتخيل أن الله يتضجر منها .

ثم أردف عم زكى ونحن عند العتبة تماما :

— ادع لى أنت يا بنى ليوفقنى الله إلى هذه الوظيفة ..

وحركنى فضول شديد فحاولت أن أعرف ماذا عسى أن يكون نوع  
وظيفة تصلح لعم زكى ويصلح لها عم زكى . فسألته ، فقال ببساطة من  
يوضح أمرا واضحا :

— خفير !

قلت مستغربا :

— خفير ؟ .. خفير على ماذا ؟

— خفير مراحىض .

فقلت فى نفسى وأنا أهبط السلم وأدور مع انحناءاته فى ظلمة النهار :

— وجب .. هذه أحسن مهنة تناسب هذه المهمة ..

## صديقان في المدينة

كان يكبرني بأكثر من ست سنوات ، وكان رقيقا شاعريا حساسا ، لا تبدو المشاعر على صفحة وجهه حتى ولو كانت عنيفة . لذلك فإنه كثيرا ما كان يحترق بهيمومه دون أن يشعر به إنسان .

كنا نتعلم معا في المدينة ونسكن مسكنا مشتركا . وكنا أبناء إقليم واحد ، بل إن قريته لم تكن بعيدة عن قريتنا بأكثر من بضعة كيلو مترات . ولما رأيته لأول مرة لم يعجبني فيه شيء .. لا لون وجهه الأسمر المصفر ، ولا صوته الهادئ أكثر من المألوف ، ولا شروده الطويل وعوده الطويل .. لكنني ما لبثت أن اكتشفت فيه يوما بعد يوم شيئا حبيبي فيه . فلم تكن صفرة لونه إلا من إرهاف إحساسه ، ولا هدوء صوته إلا من فرط رفته ، ولا شروده الطويل إلا لتأمله لكل ما حوله . وكان ابن ثلاث وعشرين عاما ومدرسا في مدرسة التجارة المتوسطة ، وكنت أنا في التعليم الثانوي ابن سبعة عشر عاما في الوقت الذي لا أزال أجمع فيه التجارب ، أما هو فقد كان لظروف كثيرة — قد جمع منها قدرا يحسد عليه .

ولم يكن كثير المذاكرة ولا المثابرة ولكنه كان شديد الذكاء . يضمنا مسكن من حجرتين .. وكنت وأنا في حجرتي أحس أنه قام مبكرا بأحد أمرين : إما أن يفتح على الباب ويقول بصوت هامس طيب : « تصبح على خير » ، وإما أن أسمع حركة المزلاج وهو يغلق عليه بابه قبل أن ينام . وكثيرا ما كنت أشتاق أن أجالسه أثناء السهرة ، فأدق على الجدار

— ١٣٢ —

الذى يفصل بين الحجرتين فيأتى كما يمشى الطيف وعلى فمه الواسع ابتسامة حية فنقطع عملنا لكى نستريح ونجلس على كرسيين متجاورين حين يبدأ فى حكاية إحدى نوادره التى ما كنت أشبع منها ، وكان إذا أراد أن يتكلم عن شيء بدأ حديثه بعبارة شيقة فيقول مستفهما :

— هل تعلم ؟

بد بماذا ؟

عند ذلك يبدأ فى حكاية ما يشاء . فعلمت من حكاياته أنه وحيد أبويه ، وأن والده أنجبه على شوق ولذلك فإنهم أتاحوا له حرية كان من العسير أن يمنحها أب لابنه فى ذلك الزمن .

وقد مدته هذه الحرية بتجارب هى فى الحقيقة أكبر من سنه . لذلك كنت حين أتحدث إليه أشعر أننى أكلم رجلا يفوقنى فى كل شيء .. رجلا من سن أبى وفى تجربته على الأقل .. لذلك أحببته كما أحب الصديق والمعلم والأب والأنيس ، وزاد من حبى فيه أنه كان لا يسخر من أخطائى مطلقا وكان يبصرنى بها بخنان وحب ودارية .

سألت ذات مساء : لماذا لا تبدو متفوقا فى الدراسة وأنت فى مثل هذا

الذكاء ؟

فأجاب ببساطة من يعرف موقفه :

— إننى ملول يا صديقى .. وضحك واستطرد :

— وإذا حاسبتنى الحياة بالشهادات فتق إننى ضائع ، لذلك فإن أساتذتى فى المدرسة يحبوننى ويشفقون على معا ويتنبأون لى إما بنجبة كبرى وإما بشهرة كبرى . وأنا شخصا أعتقد أن الحياة تعطينا الأسهل والأرخص .. فالخية أقل تكلفة وأسهل منالا من الشهرة .

وإقبال باب المسكن قبل الفراق بالنسبة لقلبينا الغضين عملية عسيرة .  
كنا نحن الاثنين من النوع العاطفى ، لذلك فإن دموعنا كانت تغلبنا وإن  
غالبناها .

وسهرنا الليلة الأخيرة قبل الرحيل نحكى من ذكريات طفولتنا  
وسعادتها والخاوف التى مرت .. والخاوف التى نخشاها فى المستقبل . ثم  
سافرت أنا إلى القرية لأننى ما كنت أطيق البقاء فى المدينة يوما بعد  
الدراسة . أما هو فقد ودعنى إلى المحطة . وكنت أسمع كلماته وأرى  
بسماته وهو مستند إلى الشباك من الخارج حتى غلبته سرعة القطار .  
وتركته فى المدينة فى انتظار النتائج .. نتيجتى ونتيجته ونسيت بين  
أحضان الأهل مشقة عيشة الوحدة وخدمة النفس . ولم يكن ينفصنى  
شئ إلا الخوف من كبوة الحظ .  
حتى كانت ليلة ..

كان جوها حارا خانقا والنوافذ الريفية مفتوحة كلها يتسرب منها  
ضوء القمر ورطوبة الليل ورائحة الندى ونقيق الضفادع . وفى ظل هذا  
السكون كنت أفكر فيما عسى أن يتمخض عنه الغد بالنسبة لى  
ولصديقى . وخيل لى فى هذه اللحظة أنه قريب منى وأنى أسمع صوته  
فانتبهت فإذا الوهم حقيقة وإذا به ينادينى من تحت النافذة .

وخرجت أجرى سريعا فألقيته واقفا جنب الركوبة التى امتطأها  
ليقطع بها خمسة كيلومترات فى الليل على الطرق الزراعية وعانقته فى ظلام  
الحارة وخرج ورأى أخى الصغير يحمل إلى المضيئة مصباحا ساذجا  
وجلسنا أنا وهو واجتمع حوله طائفة من أهلى .

ومن الغريب أننى ارتبكت فلم أعرف كيف أفتح الحديث ، حتى

— ١٣٤ —

لكأنه شخص لم أعش معه . وكأنما لذ له أن يتركنى لهواجسى فترة لأنه لم يعلن إلى نبأ نجاحى فور لقائنا . قال :  
— مبارك نجاحك .

ثم قام فقبلنى مرة أخرى وتبادل التهانى مع أهلى . وسأله فى لهفة :  
— وأنت يا حسن ؟  
فرد بسعادة ظاهرة جدا :  
— وأنا أيضا .. الحمد لله ..

ولم يطل مكثه بالطبع ، فالدنيا ليل ويجب أن يعود .  
ولما خرجنا لوداعه عند أول الطريق كان الهلال قد غاب وغطى القرية  
جوها المألوف ، قلت له وأنا أنظر إلى النجوم المتأللة :  
— لا بد أن يصاحبك رجل حتى حدود بلدكم .  
فسخر قائلا :

— وهل أنا امرأة . أنا مقدر كل ظروفى قبل أن أسير خطوة واحدة .  
لا . أرجوك . فقط أرجو ألا تنسى أننى سعيد لتهنتك فى ظلام الليل ولم  
أنتظر حتى الصباح لأننى أعلم أنك تقلق بلا داع .. وداعا يا أخى ..  
وأنا بانتظارك .

قلت بحماسة :  
— سأتى إليك غدا لأهنتك ولأتغدى معك .  
فضغط على يدى مودعا وركب وظللنا نتبع ركوبته البيضاء بأبصارنا  
تحت نور النجوم ونحن واقفون .

\* \* \*

وما أن ارتفع ضحا اليوم التالى حتى كنت عنده .



— ١٣٥ —

ولم أر أحدا من أهله لأننا نزلنا إلى حديقة صغيرة تقع أمام بيتهم .  
وجلسنا تحت إحدى عرائش العنب نقطف ونأكل ونتكلم ونضحك  
ونذكر متاعب وملذات عامنا المنصرم .

وثمنا بعد الغداء تحت إحدى خمائل الجنية ثم استيقظت بعد العصر وأنا  
أشعر كأننى قضيت ساعة فى الفردوس الحقيقى .

ولما أذنته بالانصراف قال لى بصوت يشوبه الرجاء :

— يا سيدى .. مهلا .. لماذا أنت متعجل .. هبنا ساعة أخرى حتى  
نشرب الشاى وتكون حدة الشمس قد خفت فتركب فى هواء الأصيل .  
— أمرك .

ولما جلسنا نشرب الشاى قال لى فجأة :

— اسمع يا حسنى .

— نعم ..

— هل تعرف ماذا سأعمل بإذن الله فى العام القادم ؟ إننى جهزت  
برنامجا فذا .

فهتفت كالمصعوق :

— العام القادم ؟ .. العام القادم ؟ .. أى عام تتحدث عنه يا حسن ؟

ألم تقل إنك نجحت ؟ هل ..؟ ..

ووقفت الكلمة على شفتى وجمدت يدي بكوب الشاى وهى فى  
الطريق إلى فمى وامتلأت عيناي بالدموع ، فى الوقت الذى بدت فيه  
بوضوح على وجهه الطويل الأسمر المشرب بصفرة علامات الفشل  
الذريع . لكن ابتسامة لا يفهم معناها كانت جامدة على شفتيه .

وظللنا هكذا مدة لا أدرى مداها حتى أخرجنا هو من الموقف قائلا :

— ١٣٦ —

— ماذا جرى ؟ .. إن الأمر لا يستدعى هذا الحزن كله .  
 — تذهب في ظلمة الليل لتنهني بالنجاح وأنت ..  
 فسمعتة يضحك وغابت عن وجهه علامات الأسف وقال :  
 — هذه أعز تهنة أقدمها إليك .. وعلى كل حال إذا كنت أنت قد  
 رأيت فيما عملته لك شيئا شاذا فأنا على العكس منك .. فلقد شعرت أن  
 نجاحك قد منحني قدرا من السعادة خفف مرارة فشلي . ثم ماذا كنت  
 تريد أن أقول لك يا أخي الصغير ؟ .. هل كنت أريد أن أنقص عليك  
 فرحك ؟ .. ما أشبهني إذن بمن حمل باقة من الأزهار في إناء .. لا .. لا ..  
 ثم سكت ليستطرد :

— والأيام أمامي وقد عملت برنامجا هذا للعام المقبل .. ستجدني شيئا  
 آخر .. وأنني إذا كنت من الذين لا يحسنون أعمال التلاميذ فأنا أيضا  
 لست من الذين يستسلمون للهزيمة .

\* \* \*

وعانقني على الطريق وأنا ذاهب .. وبين الفينة والفينة كنت ألتفت  
 إليه وأنا على ظهر ركوبتي لأشبع نظري من ذلك النموذج العزيز فأراه واقفا  
 ليفعل مثل ما أفعل . ومنذ منحني الطريق نظرت فلم أجده .. وعند ذلك  
 فقط أخرجت منديلي لأكفكف دموعي .

## جددنا المواعيد

بدأت الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها أنا وزميلي رفعت في مثل سعة الصحراء ، بعد أن تركني وسافر . كانت مؤلفة من حجرتين اثنتين وفسحة كبيرة .. وكل واحد منا يشغل حجرة .. فيها فراشه وكتبه وكل ما يملك الطالب من أشياء .

وكانت الساعة الخامسة مساء حين استيقظت من نومي وجلست على مكتبي ، أذكر الأيام التي مضت والتي قضيناها معا وأنا وصديقي .. وهو الآن في الصعيد مدرس في إحدى المدارس الثانوية .  
تخرج قبل بعام لأنه سبقني بعام وسألحق به بعد انقضاء هذه السنة .  
وسألت نفسي : ترى أين يكون موضعي من الأرض وفي أي بلد سأكل عيشي ؟

وتنهدت وقمت أدور في المكان كأنني أحسست مللاً ، ومررت بباب حجراته المقفل فهبت عليّ روائحه من وراء الباب . وعرجت على المطبخ بلا تدبير فأشعلت موقد الجاز وجهزت كوباً من الشاي ثم رجعت وجلست أشرب .

كنت أقطع الأفكار بالرشفات ، وأهز رأسي من حين إلى حين كأنني أستعيد ذكري مأساة ، وكانت نكهة النعناع تملأ أنفي ومزايأ صديقي تملأ قلبي .

وقهقهت فجأة حين تذكرت آخر غرام له في العاصمة . وكان كثير الغرام ، حبه الأخير قبل أن يرحل كان مع فتاة رقيقة القلب والحال

والجسم ، تعمل بائعة في أحد المحلات الكبرى .. وكان اسمها فوزية . قال لي صديقي إنه لم يكن يقصد أكثر من كلمة استحسان ولمسة غزل يوم التقى بها للمرة الأولى في المتجر الذى تعمل فيه ، وشيعته يومئذ بعينين ناعستين وسهوم متعطش .

ثم التقيا مصادفة في يوم أحد ، واحتك كتفه بكتفها والجمهور خارج من السينما ، فكانت فرصة أخرى للقاء صنعت أولى حلقات العلاقة بين الفتى والفتاة .

ولم يكن رفعت راغبا كل الرغبة في مد حبل العلاقة بينهما . كان كثير الصداقات ، صلب القلب ، يستعمل شخصيته الجذابة مصيدة يعذب بها القلوب الضيقة . وكان حين يحدثنى عن غرامياته يبدو في هدوء من يحسب حسبة أو يسألك عن الساعة . وكنت أحاول أن أعرف موضع القوة فيه فأعجز ، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة أو قوة جذب أحدهما للآخر سر إلهي خالص . ولذلك رأينا جميلات مائلات البخت ووسماء لا تحبهم الأنثى ..

ونفذت نكهة النعناع إلى خياشيمي وأنا أضع الكوب الفارغ في ناحية من المكتب ، وكنت أقول في نفسى في هذه الوهلة : مسكينة فوزية ! كانت متعلقة به ثم تركها وسافر . ولعل قلبها يحاول التخلص من شباكه الآن بلا فائدة ولا طائل كما تفعل فراخ العصافير .

وفي هذه اللحظة دق جرس الباب فأحسست إحساسا مبهما أن اليد التى قرعته يد خائفة مترددة ، وأن هذا الطارق لا يطلبنى أنا . ربما يكون مخطئا وربما يكون لصديقى .. الغائب .

وجدت نفسى — بعد أن فتحت الباب — وجها لوجه أمام فتاة

متوسطة الجمال ، عليها دلائل واضحة من رقة القلب ورقة الجسم ورقة الجمال . ولفت نظري منها أكثر من أى شيء آخر جفاف شفيتها كأنها متعبة أو ظامئة . وبادهتني بسؤال مختصر سريع حين رأيتني :

— هنا يسكن الأستاذ رفعت .. أليس كذلك ؟

ثم دلفت إلى المكان دون أن تنتظر إذنا . ووجدت نفسى محرجا ، فأنا لن أدفعها إلى الخارج ولن أقول لها إنه سافر إلا بعد أن تستقر فى مكان ، فضلا عن أنها لم تكن مخيفة ولا مريبة .. كانت من النوع الذى يتأكد أى رجل أنه قادر على قهره وغلبته بمجرد وقوع عينه عليه .

وأقفلت الباب وسرت أمامها وتبعتنى إلى حجرتى .

بللت شفيتها بريقها بعد أن استقرت على أقرب كرسي ، وفتحت حقيبة يدها لتخرج منديلا فسيقته رائحة عطر أنعش هواء الغرفة .. كل ذلك فى دقيقة أو أكثر قليلا . هتفت بعدها بلهجة مستعجلة :

— وأين الأستاذ رفعت .. من فضلك ؟

قلت لها بلهجة من قرر أمرا مفروغا منه :

— إنه سافر . ولكن يجب أن تستريحى .

فبدت عليها المفاجأة ، ثم رفت على وجهها سحابة غم خفيفة من نوع السحابة التى تخيم على وجوه الدائنين حين يتمكن مدينوهم من الفرار بطريقة غير شريفة .

وأردت أن أخفف من حدة الموضوع ، فقلت كلاما لا يعدو أن يكون كلاما فقط لا مغزى له ولا مدلول ولا طلب ولا فائدة .

— نعم .. سافريا آنسة . وهل أستطيع أنا أن أؤدى أية خدمة ؟

فردت وهى تنظر فى حقيبتها المفتوحة بهمس وشروود :

— ١٤٠ —

— شكرا .. فالمسألة شخصية صرف ..

فقلت مستدركا :

— شخصية صرف ؟ أنا متأسف ..

وكأنما أفاقت على أنها اتخذت خطوة غير كريمة مع رجل كريم أحسن لقاءها وأبدى استعدادا طيبا لعمل ما تطلبه منه ، وحملت في برهة فشعرت أنها بدأت تستأنس بشكلي الهادئ وتطمئن لنظراتي الوديمة . وأسندت ظهرها إلى ظهر المقعد وتمكنت من جلستها ثم تنهدت بارتياح .. وقالت وسبابتها على شفيتها :

— إذن سافر ؟

— طبعاً سافر .

— هيه .. وظف ؟ .. هل سيعود ؟

— إن أثنائه ومتاعه كله في الحجرة الأخرى .

— حسن .. على كل حال لم تكن تصرفاته مع فتاة أحبته تصرفات رجل كريم .

فخفق قلبي وانتابني حب استطلاع لا يغلب . لكنني حاولت جاهدا أن أكمم عنها فضولي وأن أدعها تقول ما تشاء وتخفى ما تشاء . فعلمت على قولها بسؤال :

— وهل سفر الناس شيء ممنوع ؟

— لا مطلقاً .. لكنه إذا جاء فجأة وأحيط بالكتان والمراوغة كان له

معنى مريب .

ثم ساد سكون لم أجد فيه شيئاً أقوله ، فاستأذنتها في عمل فنجان من الشاي ، ولما رجعت إليها وجدتها أكثر هدوءاً . كانت تقلب نظراتها في

المكان بشيء من الاستقرار ، ولونت وجهها حمرة مألوفة تطبع وجوه الفتيات في عمرهن الباكر . وحين قدمت إليها الشاى قالت بلهجة جديدة :

— أنت ظريف .. وأنا متشكرة جدا .. الفرق بينك وبين صديقك رفعت عظيم للغاية .

ونحن نتحرج إذا وازن الناس بيننا وبين أصدقائنا .. لكن حب الذات يغلبنا دون أن نشعر . فقلت لها بدعابة هادئة :

— طبعاً الفرق بيننا عظيم .. هو سماء ، وأنا أرض .  
فنظرت إلى من خلال أهدابها نظرة فهمت معناها ، وهي تحرك الملعقة في الفنجان . ثم هزت رأسها وقالت :  
— من النظرة الأولى تحكم العين عليك بأنك من الذين يطمأن إلى جانبهم .

— شكراً ..

— لكن رفعت خدع فتاة بريئة .

وسكتت وسكت .. استطردت :

— وأنا أعجب لهؤلاء الشبان الذين يذلون الوعود بلا حساب .  
أليس من الجائز أن تكون هذه الفتاة التي خدعها مرتبطة قبله برجل آخر .. ومن قوة تأثيره تتخلى عن الأول .. ثم تخسر الاثنين ؟  
قلت بشرود :

— جائز ..

قالت وفي عينيها السوداوين دموع متوقفة حول الحديقة كأنها نقط من الجلسرين :

— ١٤٢ —

— ألا يذكرون أن لهم أعراضاً ؟ لماذا يفضلون هذه التسلية الكريهة .. أنتم تشعلون الحرائق في بيوت الناس بالبساطة التي يشعل بها الواحد منكم سيجارة .

وكان الحماس قد بلغ بها منتهاه إلى حد أن أصابعها الطويلة كانت ترتجف ، فأجبتها بشيء من الخجل :

— لكن لماذا أنت منفعلة عليّ ؟ كأنني أنا صاحب الموضوع ؟ فأفاقت قائلة بأسف لطيف :

— متأسفة .. إن الموقف هو الذي جرفني .. على العكس .. أنت شاب طيب .. يحيل إليّ أنك لو كنت في موقفه ما فعلت معها مثل ما فعل .

وحاولت أن أستوضحها ، لكنني أشفقت على رقتها أن تجرح مرتين .. إنها فوزية ما في ذلك شك بدليل أنها تتكلم بحرارة من خدعه إنسان كانت واثقة فيه .. ثم هي تنظر إليّ الآن نظرات لينة كأنها مجروحة تطلب ضماداً .. وأنا إذا تقدمت إليها خطوة فإنها ستخطو إلى خطوتين .. لكن ألا يعتبر هذا خيانة بالنسبة لصديقي الغائب ؟ وجاءني صوتها يسأل :

— لماذا كل الرجال خائنون ؟

— هل أنت واثقة مما تقولين ؟

— لماذا كل الحنظل مر ؟ هل أكل الناس جميع الحنظل الذي في الدنيا ؟ ذاقوا منه ثلاثة مثلاً فعرفوا أنه كله مر .

ورأيت منطقتها لا يخلو من المغالطة ، فأثرت أن أرد بابتسامة لا تعبر عن شيء لأنني أشفقت عليها . مسكينة !.. لا داعي لحرصها .

\* \* \*



وفي يوم الأحد التالى فتحت الباب فوجدتها هى التى دقت الجرس ..  
كانت فى زينة أبهى من زينة اللقاء الماضى وعلى وجهها دلائل من جاءت  
لتسأل عن شخص حاضر .

وقصدت إلى حجرتى توا وبادرتنى بسؤال عن حال رفعت ، ثم  
توجعت قليلا من تصرفاته الخائنة ثم طلبت منى أن أعمل فنجانا من  
الشاي .

ثم أخذت تفحص كتيبى على المكتب ، ثم حلت بعض أزرار قميصها  
لأن الجو مائل إلى الحرارة فبدا صدرها النحيف أكثر من قبل . ثم طرحت  
شبكة الصمت والسكون والخيرة والنظرة اللهفى فعلق رجلي  
بالشبكة .. فإذا بى — ولست أدرى كيف حدث — أحتضنها وأقبلها  
وأسمع منها كلمة الحب . ثم يظلل جونا صمت مؤسف ثقيل يعرفه اثنان  
خانا ثالثا يعرفانه .. والثالث غائب عنهما .. لكن روحه مشرقة على  
المكان .

قلت لها بعد أن جمعت شتات أعصابى :

— اسمعى يا آنسة . لقد حدث بيننا ما حدث وانتهى الأمر .. وعلينا  
منذ الآن أن نتحمل تأنيب الضمير فترة من الزمن حتى يخفت صوته أو  
نتعود التأنيب .

فضحكت فى رفاة بال ، وغابت عنها الأنثى المهزومة المجروحة التى  
كانت تطلب ضمادة وظهرت من خلالها فتاة ثانية متفتحة .. يوحى  
منظرها الرقيق فى كل ناحية أن له مستقبلا أحسن كما يورق العود بعد  
الجفاف .. فسألتها جادا :

— هل ترين فى هذا شيئا مضحكا ؟

— ١٤٤ —

- نعم يا حبيبي .
- ما هو ؟
- أن رفعت يستحق هذا الذى فعلناه لو أن له عندى حقوقا .
- لماذا ؟
- لأنه لا يحفظ عهد أحد . والذين لا يحفظون عهود الناس لا يجب أن يحفظ الناس عهودهم .. على أنه ليس عندى حق ما ..
- وأخرجت زجاجة عطر صغيرة وأطلقت أنفاسها تجاهى .
- وسكننا قليلا ثم عاودنا أخطاءنا من جديد . ولما هدأ ما بنا سألناها
- سؤالا كأنما أردت به أن أزيح عن صدرى كابوسا .. قلت :
- افرضى الآن أن رفعت طرق علينا الباب وفاجأنا بالدخول ..
- ألا يكون فى ذلك ما يجرح إحساسنا نحن الثلاثة ؟ ثم أى الثلاثة منا
- سيختص بالقسط الأكبر من الملامة ؟
- قالت بشجاعة :
- لا أحد ...
- فهتفت متعجبا :
- ماذا تقولين يا فوزية ؟
- فاستغرقت فى الضحك وردت :
- فوزية .. أنا فوزية .. من قال لك ذلك ؟
- إذن ..
- أنا عواطف زميلتها فى المحل . هل كنت تظن حتى الآن أنني فوزية ؟
- هل بدر منى ما ينبئ بذلك ؟ كنت قد جئت لطلب رفعت فأصلح بينهما
- فوجدت الغرام كامنا لى فى الركن .

— ١٤٥ —

و كنت لا أزال صامتا أراجع موقفى لأعرف ما إذا كنت ساهيا أو  
مقفلا . لكن الذى وصلت إليه هو أننى أحببت هذه الفتاة ، وليكن اسمها  
فوزية أو عواطف أو زينب أو زكية ، وأنه لا سبيل إلى التراجع ..  
وجددنا المواعيد .

( حلم آخر الليل )

## عبير الحرية

لم أكن قد رأيت ضاحية « المعادى » منذ عشر سنوات . كما بعض سكانها سنة ١٩٥١ وكان أبى موظفاً فى الحكومة ثم انتقل فى هذه السنة إلى مدينة « سوهاج » مهندسا فى البلدية .. وودعت الضاحية الجميلة التى قضيت فيها أزهى سنوات الطفولة وأحلاها ، وسافرنا إلى الوجه القبلى الذى كان فى الحقيقة هو وطنى الأول لأن أبى من مواليد الصعيد .

كان أبى فرحاً جداً وهو ينظر من نافذة القطار إلى غابات النخيل على جانبى الطريق ، ويهمس إلينا بين فترة وفترة بذكرى طفولته فى هذه الأرض . وكنت أنا فى الثانية عشرة من عمري تلميذاً بالمدارس الثانوية . وكنت بالتالى — كشأن أبى — مشغولاً بالأرض التى قضيت فيها عهد الطفولة ، فكانت ذكريات هذه الضاحية عالقة برأسى أرى ملاح صبايحها ومسائها على كل شبر يقطعه القطار ، وأتخيل كيف أن الزمن قادر على طمس هذه المعالم من ذاكرتى . وكنت أسائل نفسى كلما ارتعشت بنا العربة أو صفر القطار على مقربة من محطة : هل سأجد فى سوهاج صديقاً عزيزاً مثل لطف الله ؟ وتنهت وأختى الصغيرة ترفع صوتها طالبة أن تشرب فى نفس اللحظة التى كان أبى فيها منهمكاً فى وصف الحياة الرخية التى سنلقاها هناك . أما أنا فقد كنت أذكر كيف ودّعت صديقى لطف الله .. زميلى فى المدرسة واللعب والرحلات والسهر والمذاكرة .

كان وحيد أبويه وأبوه أحد التجار .. يسكنون في المعادى شقة في الدور الأخير من أحد المنازل ، ويقع أمامهم قصر شتوى غارق في حديقته لم يكن أصحابه يفتحونه إلا شهورا قليلة طول السنة . أما بقية العام فكنت أراه أنا وصديقى لطف الله غارقا في الصمت والظلام . ننظر من نافذة حجرة صديقى فلا نرى شعاعا من النور إلا في حجرة البواب عم ياسين ..

وكان عم ياسين هذا رجلا عجيبا . أسمى ممشوقا دقيق العينين . أحب صديقى لطف الله بحكم الجوار ، وأحبني كذلك بمرور الزمن . كان يعطينا بعض الأزهار ويحدثنا عن القصر وأبنته بمثل أحداث ألف ليلة وليلة . وأهم شيء شغل بالنا هو الجناح الداخلى المكون من حجرتين كبيرتين فوقهما حجرتان مثلهما لا يصل إليهما الداخل إلا بعد مشى طويل في ممرات الحديقة . وعندما كان عم ياسين يتكلم عن هذا الجناح كنا نشعر بأن معلوماته يشوبها الغموض والشك والتحرج . على أننا في كل خريف كنت أشهد أنا وصديقى من بعد كيف تدب الحياة إلى هذا المكان . فعندما يهل شهر أكتوبر من كل سنة كانت الأضواء تلمع في هذا القصر جناحا بعد جناح ، ويكثر توافد العربات عليه تحمل طائفة من الذين يسهرون الليل وينامون النهار . وعندما يتقدم الليل في الضاحية ويسكن كل شيء فيها ، يتناهى إلى أسماع السكان على مقربة من المكان صوت موسيقى وغناء تدعو إلى رقص أرعن ، وقد يخرج من الباب شاب مخمور وهو يسب ويلعن بصوت مرتفع ، أو فتاة مخدوعة تمسح الدمع بأطراف منديل ، أو رجل يتحسس جيوبه ثم ينادى على سائق عربته بصوت متذمر لا يلبث أن يغطى عليه أزيز المحرك .

كان عم ياسين يرى هذا العالم وينظر إليه بقلب حائر ، وكان بعض الضيوف يخرجون آخر الليل من الجناح الداخلى بعدما يتسلل نور الفجر عليهم من النوافذ . وكانوا بلا استثناء يغادرون القصر بوجوه مكدودة ونفوس متوترة يلمس بعضهم بعضا فى خوف وحذر ، كما يلمس الطفل سطح « البالون » المنفوخ .

وما يكاد الخريف يمر منه شهران حتى يعود الهدوء فيطبق على القصر . وفى الليل عندما أكون مارا على بابه أنا وصديقى لطف الله ، نرى عم ياسين على مقربة من حجرته أمام الباب جالسا وفى يده مسبحة ، وبعض كلاب الحراسة يحوم حول المكان . والهدوء ظاهر على وجه الرجل كأنه عليل اجتاز دور النقاهة . وفى إحدى ليالى الشتاء تقدم بنا الليل أنا وصديقى ونحن نذاكر فى حجرته هناك . وكان الليل دافئا نوعا ففتحننا النافذة ونظرنا إلى المكان .. فرأينا حدود المصابيح التى غطى الضباب زجاجها ، وقد دارت مع الشوارع الأربعة التى تحدد موقع القصر . ورأينا الحديقة المظلمة والليل الهاجع والخضرة التى تتحول إلى سواد مع قدوم الليل .

وتناهى إلى سمعنا نباح كلب مطمئن .. عرفنا أنه أحد كلاب الحراسة فى هذا القصر . كان ينبح بحكم العادة لأنه لم يشهد فى هذا المكان حادثة ما . وجرنا هذا المشهد إلى أن نتخيل الجناح الداخلى الذى حدثنا عنه عم ياسين البواب .

وتحكم خيال هذه السن التى تدلف إلى الشباب — تحكم فى تصوراتنا ، فقال صديقى : لا بد أنه مخزن للخمر أو النقود أو سلاح الزينة .

فاعترضت أنا قائلاً : ولماذا لا يكون مخزننا للمثونة ، والحجرة العليا  
قاعة طعام ؟

فاستغرق لطف الله في ضحك شديد ، وبين لي أن مخزن المثونة وقاعة  
الطعام أماكن لا بد من أن يدخلها الخدم في القصور .  
وكففنا عن التخييل وأخذنا من جديد نفحص بأعيننا عالم الواقع في  
تلك الليلة من شهر فبراير ، وكان المارون قليلين والهواء يهيمس في أوراق  
الشجر همسات متوجة غير طويلة . وبعد لحظة صمت كنا نخلق فيها إلى  
أرض الشارع تبادلنا النظر في عجب وصمت . لأن شيئاً ما لفت نظرنا  
هناك .

كان هناك رجل يتحرك .. لا أستطيع أن أقول إنه يمشي لأنه كان مثل  
طوق من الحديد دفعته يد طفل وقعت عليه أعيننا في اللحظة الأخيرة ..  
حين تخلت عنه قوة الدفع ووصل إلى لحظات الترنح قبل السقوط .  
خيل إلينا « من طول ما شهدنا السكارى في هذا المكان » أنه سكران  
لكن ملاسسه وما كان يحمله معه جعلتنا نجزم بأنه متعب . عليه جلباب  
أسود قد شد على وسطه حزام وعلى رأسه تليفعة ، وقد شد إلى أحد كتفيه  
حبلًا تدلت منه قفة يدل منظرها على أنها فارغة من كل شيء ، وفي يده  
قصبة طويلة جدا جدا تعرف العين عندما تراه وتراه .. أنه صياد يحمل  
قصبة .

وجلس الرجل عند ناصية السور لكي يستريح . وجلس القرفصاء ثم  
انطوى لأنه طویل العود وأسند القصبة إلى سور القصر والقفة إلى  
جواره ، ثم أخرج سيجارة ليشعلها ورأينا عود الثقاب ينطفئ والسيجارة  
لا تشعل ، وعودا آخر .. وثالثا .. فكف الرجل عن المحاولة كأنما لم يكن

معه ثقاب . ولم تمض عشر دقائق حتى كان قد نام فى الوقت الذى كان  
الهواء يحمل إلينا فيه نباح كلب مطمئن يأتى من صميم الجنيينة ..

\* \* \*

وفى الصعيد .. بعد نقل أبى .. كنت أراسل صديقى لطف الله .  
ومضى الأيام أخذت أشعر أن لطف الله ضرورة لى على البعد ، لأن  
رسائله لم تكن تفاهات ولا تسلية وقطع وقت بل كنت أحس فى كل  
رسالة أن له عقلية وقلما يبشران بالخير . خصوصا عندما كاد يتم مرحلة  
التعليم الثانوى .. وبعد أن كان يصف لى فى رسائله مظهر الحياة التى دبت  
كالماء فى العود بعد نقل أبى من القاهرة سنة ١٩٥١ ، كان يحدثنا حديثا  
شخصيا فى رسائله ويدعونى أن أجيء لأشهد الدنيا التى ولدت بعد غيابى  
عن المعادى .

وكان أبى يعجب من وفائنا لعهدها لأن الرسائل لم تنقطع بيننا على الرغم  
من أننا لم نتلاق فى خلال العشر السنوات هذه إلا ثلاث مرات أو أربعا .  
معظمها بفضل الرحلات . لكن .. لكن .. هذه هى الظروف قد  
سمحت وعدت إلى القاهرة . لأن أختى الكبيرة قد تزوجت فيها ..  
وكنت أنا ضمن قافلة الأفراح وأتاحت لى الظروف أن أتردد على صديقى  
لطف الله الذى كان يدرس الطب .

وفى الحجرة التى طالما سهرنا فيها أطللت على المعادى ، وكان الفصل  
صيفا ولم تكن فى الليل . وسارعت أسأل بلهفة : لطف الله .. لطف  
الله .. هل عم ياسين لا يزال موجودا ؟ فأمسك بيدي ونزلنا إلى  
هناك .. ودفع لطف الله الباب الحديدى ودخلنا . فقلت له وأنا أخطو  
الخطوة الأولى :



— عم ياسين ليس فى الحجره يا لطف الله ..  
فلم يلتفت صديقى بل دخل إلى الجنينة وهو ينادى باسم الرجل . أما  
أنا فتسمرت فى مكانى خائفاً من الكلاب ولو أننى لم أسمع نباحا . ولم ألث  
إلا قليلا حتى برز الرجلان من خلال المشى المشجر ، وكان صديقى  
يسأل عم ياسين مداعبا :

— هل تعرف هذا الشاب يا عم ياسين ؟  
فحملق الرجل فى وجهى وهز رأسه أسفا .. وضحكتنا .. فعاد  
يتفحصنى من جديد . ثم ما لبث أن هتف « رشاد » .. « رشاد » زميل  
لطف الله .. يا سلام .. لولا النونة التى فى أسفل ذقنك ما عرفتك .  
وعاد يهز يدى يا لسلام .

ولم تمض دقيقة حتى عاد لطف الله يقول لعم ياسين فى همس وحذر :  
— تعال الآن يا عم ياسين لترينا الجناح الداخلى ، فالوقت مناسب .  
وسارا أمامى وسرت وراءهما ، وأحسست أننى أشم فى المكان رائحة  
جديدة .. رائحة تبينها قلبى ولم أستطع تسميتها فى الحال . ولم أر خدما  
ونحنى طريقنا إلى الجناح ، ولم يقابلنا أحد . فعللت ذلك بأن صاحب  
القصر يغيب عن القاهرة طوال الصيف مثل العادة خارج البلاد .

حتى إذا ما وصلنا إلى هناك رأينا باب الجناح : موصدا ، ووقفنا نحن  
الثلاثة ، وكنت فى انتظار أن يفتح عم ياسين مثلاً أو أن أرى الباب  
مفتوحا . ولحيت عيني لافتة مكتوبة على يمين الداخل تقول : « المكتبة »  
فنظرت إليهما فإذا بهما يضحكان . فأحسست أن لطف الله حين سبقنى  
إلى عم ياسين كان قد دبر كل هذا . فسألت : هل الجناح السرى ..  
مكتبة ؟! هل هذا معقول ؟

فضحك عم ياسين وقال : كان وكرا للقمار .. والعار .. ولكن ..  
أقدار يا رشاد .. أقدار ..

وعدت أحملق في اللافتة « مكتبه » .. وسألت فجأة :  
— لكن .. ما الحكاية يا عم ياسين ؟!

فقال لى : إن لطف الله صرف نظرك بمهارة عن اللافتة الأخرى المعلقة  
على الباب الخارجى .. لقد أصبح هذا المكان مدرسة ثانوية للبنات بعد أن  
عاد ملكا للشعب ..

وضحكنا .. ثم سألته :

— وأنت يا عم ياسين ؟

فأجاب :

— أنا .. موظف حكومة . وبتى تلميذة في هذه المدرسة . انظر ..  
ونظرت حيث يشير .. فقال لى : تلميذة في هذا الفصل .. وقد  
كانت هذه الحجرة ألعن حجرات القصر .. لكن .. طلع منها النور ..  
ياذن الله .

وضحك .

وعند اجتياز المشى الرئيسى فى طريقى إلى الخروج ، لم أكن أسمع  
صوت خدم ولا نباح كلاب . وعادت الرائحة التى لمست قلبى عند  
الدخول تلمسه من جديد .. لكننى فى هذه الآونة وجدت لها اسما ..  
عرفتها ..

فقد كانت عبر الحرية .

## قلب إنسان

كانت داره تقع عند مدخل العزبة .. نظيفة طيبة متواضعة .. مثله ..  
 يعلق عند بابها فانوسا يسهر طول الليل .. تتجمع عنده ونلعب في ليالى  
 الظلام ونهجره في ليالى القمر ، والغرباء والتائهون يعرفون به الطريق كأنه  
 منارة . وفي ليالى الشتاء كان يعلقه تحت ظلّه حتى لا تطفئه الريح .  
 ولم يكن الحاج ربيع غنيا وإنما كان يملك من الأرض ما يكفى  
 الإنسان ، وكان يعتبر أرضه ملكا للناس لأنه لم ينجب أحدا .. كان  
 بلا ذرية . وفتح هذا في قلبه كل ينابيع الحنان حتى غمر الناس فجعلته  
 القرية أبا لها . كان الأطفال يفسحون له الطريق إذا مرّ وهم يلعبون حتى  
 لا تلوث الكرة أذيال ثوبه الأبيض ، ويشعرون بطمأنينة تغمر وجهه  
 كأنها جزء من التى يهديها إليهم في الليل نور مصباحه المعلق على باب داره .  
 والصبايا يغطين وجوههن بأطراف الشال إذا قابلنه في الطريق ، أما  
 كبيرات السن فيبتسمن ويحيينه لأنه يندر أن ترى دارا قد خلت من  
 فضله .. ربما كان ابنها أحد الذين يجتمعون عنده ليتعلم القراءة  
 والحساب ، أو ربما كان الحاج ربيع سببا في فض خصام بينها وبين  
 زوجها ، أو ربما كان وكيلا عنها في إحدى القضايا ، أو حمل بنتها التى  
 تعسرت في الولادة إلى مستشفى البندر في عربته فكتبت لها النجاة ، ومنّ  
 الله عليها بسلام .

وتمتيت أن أكون مثل الحاج ربيع ، حين رأيت أهل العزبة جميعا  
 عاجزين أن يكونوا مثله .

( حلم آخر الليل )

وكان ذلك في يوم من أيام أبريل .. كان القمح يتمايل مع ريح شديدة صفراء معفرة يسمونها الخماسين . وكنت في الثانية عشرة من عمرى أنظر من نافذة الدار إلى منظر الحقول في خوف وانقباض . وسمعت بعد ذلك صراخا ينبعث من إحدى الدور .. وهتف الفلاحون بأن حريقا هبّ في العزبة . وكانت الدار واقعة في الشمال فساعدت الرياح الحريق على أن تعبت بالدور . وكان الحاج ربيع غائبا عن العزبة فتوهم الناس أن القدر قد تخلى عنهم لأنه كان صاحب مشورة في كل شيء .. واحتترقت عدة دور على الرغم من كل جهد ، وكانت الخسائر محصورة في المحاصيل والخشب . ومع غروب الشمس رأينا الحاج ربيع يدخل من الطريق الرئيسي نحو العزبة .. عرفه الناس ببوق السيارة التي يركبها وكان قد علم بالخبر في أثناء الطريق ، فرأيناه يجرى بسرعة مجنونة كأنه يريد أن ينقذ فلذة كبده الوحيد من بين ألسنة النيران .. وهو .. لا ولد له ، وداره المنعزلة التي لا تحمل وقودا بعيدا عن أخطار الحريق .

وعند دخول المساء كان في « المنظرة » اليمنى من دار الحاج ربيع عدد من أعيان العزبة سهروا يتحدثون فيما يجب أن يعملوه مع جيرانهم وذويهم ، فقد جعلهم الحاج ربيع يشعرون وكأن دار كل منهم هي التي كانت طعاما للنار .

كنت واقفا تحت شباك « المنظرة » أستمع إلى جدل الرجال ونقاشهم ، وأشب على أطراف أصابعى من حين لحين لأتلدّ بما أراه على وجوههم من انفعالات وبخاصة على وجه الحاج ربيع .. وأخيرا سمعته يقولون : « نعم .. هذا صحيح .. يجب أن نفعل ذلك .. يجب أن نفعل ذلك ؟! »

وضحك الحاج ربيع مقهقها وقال : لنفرض أيها السادة أننا جميعا مسافرون في سيارة واحدة .. فينا من هو ذاهب لحضور قضية هامة ، وفينا من هو ذاهب بزوجه للطبيب ، وفينا من هو ذاهب لمجرد التزهة .. ثم تعطلت بنا السيارة على الطريق . فهل تظنون أن صاحب الغرض التافه يكون أقل قلقا على مصير السيارة من صاحب الغرض المهم ؟ فقال الحاضرون : لا والله يا حاج ربيع .. سيحزن حتما من أجل المريضة التي تكن ، أو من أجل الذى يريد أن يدافع عن قضيته . فقال الحاج ربيع : إن هذه العزبة الصغيرة أشبه بهذه السيارة .. مصيرنا كلنا واحد .. فلماذا لا نعمل صندوقا من أجل المنكوبين .. واجمعوا الحطب من فوق دوركم وضعوه هنا فى الساحة الغربية .. ولا تخافوا .

فضحكوا وضحك الحاج ربيع وقال : لا تخافوا على الحطب الذى خلق للنار .. لا تخافوا عليه من السرقة فإنه سيكون تحت حراسة رجل من الذين تثقون فيهم ، وسأدفع له أنا أجر الحراسة .

وعندما أخذ الجميع فى الانصراف كنت أنا أتسلل من تحت شباك « المنظرة » عائدا إلى الدار وصورة وجه الحاج ربيع فى جلبابه الأبيض وشعر رأسه الذى يشبه رغوة الصابون .. لا تفارق خيالى .

وكان موعد الاجتماع عنده فى الليلة القادمة . وأعلن الحاج ربيع لهم قبل انصرافهم أنه سيسافر قبل طلوع الشمس إلى دمنهور وأنه سيعود قبل المساء ، وعلى الموسرين من الذين حضروا الاجتماع أن يبدعوا فى تنفيذ المشروع .

وقضينا طول النهار التالى بعد خروجنا من المدرسة ، نلعب فى آثار الحريق بقلوب خالية لا تعرف كدر الحياة ولا معنى الكوارث .. فقد

كنا صغارا ..

وجلس أهل العزبة قبيل الغروب ينتظرون عودة الحاج ربيع . وبدأ  
الظلام يهبط وسكنت ريح الخماسين عن الهبوب بعد أن أنزل الفلاحون  
كل الحطب من فوق دورهم ووضعوه في الساحة التي يملكها الحاج  
ربيع . وخيم على العزبة صمت كالذى يخيم على ساحة القتال بعد انتهاء  
معركة . وبينما أهل العزبة جالسة بالانتظار إذ بشاب من الشبان يبلغهم أن  
أحد المارين بالعربات على الطريق العام أخبرهم أنه رأى عربية الحاج ربيع  
غارقة في المحمودية .. عرفها بلونها ورقمها الظاهر .. وأن أهل القرى  
المجاورة لم يجدوا فيها أحدا ..

وسمعت وأنا حزين إلى الفروض التي أخذ أهل العزبة يفترضونها ،  
فقال أحدهم : أليس من الجائز أن تكون السيارة مشابهة لسيارة الحاج  
ربيع ؟ .. ثم .. إن الحاج ربيع قلما يسافر وحده ..  
وكانت الافتراضات كلها ضعيفة ، ليس المقصود بها إلا بثّ  
الطمأنينة في قلوب الناس .. وخرج بعض الشبان بعربة إلى مكان  
الحادث .. وطال الليل وامتد .. وكلما مر وقت تأزمت الأمور وأصبح  
الخطر شيئا محققا .

وعند منتصف الليل عاد الشبان الذين خرجوا بالعربة يؤكدون مع  
الحزن الشديد أن السيارة هي سيارة الحاج ربيع . فعم الهرج والمرج ،  
وأحس كل فرد في العزبة أن حريق البارحة قد هب من جديد .. في كل  
دار .. وفي كل قلب .

وسمعت أحد الفلاحين يقول بطريقة عصبية :

— غير معقول .. معقول أن الحاج ربيع يموت ؟ واستغفر الباقون

الله ، وردّ عليه أحد الشيوخ في صوت مرتعش ينفى الشر عن الرجل الطيب وقال :

— من قال .. من قال إن الحاج ربيع مات ؟  
وتقدمت خطا الليل .. والعزبة كلها ساهرة تسأل الغيب عن مصير رجلها المحبوب ، وفجأة لمع على الأفق مصباح سيارة كانت تأخذ طريقها نحو العزبة . وخفقت القلوب ، ونظر الفلاحون بعضهم إلى بعض .. نعم .. لقد أحسوا بما يشبه الوحي أن هذه السيارة تحمل خبرا ما عن الرجل الغائب . ولما بلغت من الطريق نقطة تجعل اتجاهها نحو « العزبة » أمرا مؤكدا ، انطلق الفلاحون على الطريق يسابق بعضهم بعضا .. انطلقوا يقابلون السيارة .. وكان الشبان أسرعهم جريا .. كل واحد منهم يريد أن يصل أول الناس إلى السيارة ليرى من فيها .  
وكننت أنا مع الساهرين .. وكننت أجرى مع الناس . لم أكن أعلم إلا ليلة هذا الحادث أن الحب يمنح قوة روحية وجسمية لا تخطر على بال الناس ، فقد كنت أنا أول الذين وصلوا إلى السيارة . وقفت أمامها وحملت في داخلها وأنا ألث .

ولم أصدق نظرى .. فجعلت أهتف لأسمع الناس :

— الحاج ربيع .. الحاج ربيع ..  
وهتف باسمه أقرب الناس منى . حتى وصل الخبر إلى العزبة فسمعنا زغاريد النساء توقظ سكون الليل .

كان الحاج ربيع يحكى حكاية سيارته التي سرقها لص من أحد شوارع دمنهور ، فسقطت به في ترعة المحمودية وهو يحاول الفرار بها ، وكان لا بد أن ينهى أعماله في البندر ، ولم يكن يخطر على بال الحاج ربيع أن القدر

سينهى الخبر إلى سكان العزبة . وضحك الرجل الطيب وقال :  
 — عال .. عرفت منزلتي عنديكم .  
 ثم ضحك وأردف : حتى لو كنت مت فإنني سأعيش في قلوبكم  
 الطيبة .. عال .. وهل في الدنيا أجمل من هذا ؟  
 واغرورقت عيناه بالدموع ، كأن ضعف الإنسان قد لحقه لأنه تذكر  
 أنه لم ينجب ، وإن كان كل أهل « العزبة » أبناءه .  
 وكنت واقفا أراقبه . كنت أحب ثوبه الأبيض وشعره الناصع كأنه  
 زيد البحر أو رغوة الصابون .. نعم .. وكنت أتمنى أن أكون مثله .  
 وفي صباح اليوم التالي كانت أعمال التعمير تصلح كل ما أفسدته  
 النار ، وابتسامة الحاج ربيع تشجع العاملين .



## اليوم الموعود

آه .. ما أفضع دخول الليل على الوحيد والمريض !.. ولماذا لم يكن طويلا علىّ في السنوات الماضية ؟

هكذا هتفت وهي تغلق النوافذ في ليلة شتوية كثيرة الرطوبة .  
وانقطعت عنها الحركة الضئيلة التي كانت تأتي من الشارع الهادئ ،  
فبدأت تعاني الليل من أول ساعة فيه .

وبيتها مكون من ثلاثة طوابق بما فيها الطابق الأرضي .. في الشقة التي  
تحتها عروس جديدة في شهرها الأول من الحياة بعد شهر العسل مباشرة ..  
أما السلامك فيسكنه زوجان قد كبر أولادهما . كتب على البيت أن  
يكون خاليا من الأطفال .. بعدما تغرب الشمس تسكن في البيت كل  
حركة غير الحركات العادية المحسوبة التي لا يشوبها ضجيج . لذلك تحس  
الست « نظيرة » كل مساء أنها انغمست في الليل انغماسا ، وأنه يتخلل  
مسامها ويسرى في نفسها كأنه شيء معنوى . حزن مبهم مثلاً أو ذكرى  
بعيدة لفقيد عزيز . فتقفل النوافذ إلى غروب الشمس وتلوذ بغرفتها ذات  
السريр الكبير .

والست نظيرة اليوم في الخمسين من عمرها .. امرأة ذات مشاعر  
حادة حارة لا تخلو من الرقة ، والعيب في مشاعرها أنها غير متناسبة مع  
دمامتها . لو أن زوجها كان شاعريا لعثر في كيانها على حديقة للأزهار ،  
ولكنه كان واقعيا فظا يتناول كل شيء عن طريق الفم .. حتى الحب .  
عاشرته سبعة أعوام كان انفصاهما في نهايتها شيئا طبعيا جدا . في

الفترة الأولى كان الأمل فى الذرية يغلب على مطالبه من الجمال ، فلما خاب الأمل فى الذرية — بسببها — اكتشف أنها قبيحة الوجه . وبحكم الطبيعة التى تعوض فىنا النقص كان لزوجها من جسمها الخصب لعبة لطفل كبير . وفى الفترة الثانية من العشرة كان حنانها عليه يسكن كل أمل ويشفى كل داء . فلما أحست أنه يعتبر كل ما تبذل تملقا وخوفا من الانفصال ، بدأت الفترة الثالثة فى حياة الزوجين .. وكان فيها زواج أخرى ، ثم زلزلة للحياة القديمة أدت إلى الانفصال .

\* \* \*

وكانت الست نظيرة وهى تقفل الشبابيك كل ليلة تحس أنها ممسكة بجزء من الشيء الذى خرجت به من الحياة .. وهو كل ما خصها من الدنيا . هذا البيت الذى تسكن الشقة العليا منه .. من مؤخر صداقتها وما ادخرته من زوجها وما ورثته عن أبيها . حولت هذا كله إلى بيت من ثلاثة طوابق ..

« لو أن لى ولدا يرثه ، أو حتى بنتا ولو كان زوجها شريرا يتعجل يوم وفاتى ، ذلك خير من لا شيء ، يا رب » .

ثم تستلقى على الفراش بعين دامعة . وتنظر إلى الصور المعلقة على الجدران فلا ترى فيها إلا أحبابا راحلين . أباه وأمه . ليتها كانت أرملة لحبيب راحل ، كانت مستعدة أن تهب له أكثر من ذاتها — لو كان ذلك ممكنا — لكنه لم يكن مستعدا ، فخرجت من بيته بالكراهة .. ذلك هو زوجها .

ولها أختان فى المدينة لا تكثران من زيارتها إلا إذا اشتد بها المرض .. ذلك مفهوم ! هما وأولادهما ينتظرون رحيل الحارس .. موت الست

نظيرة .. وقبل أن تستقر الجثة على التراب يتناهبون أطايب الموروث .  
وعندئذ تحركت « المزيكة » فى صدرها .. مزيكة الربو . وضافت  
أنفاسها تماما ، وجعلت تفكر فى اهتمامها البادى بهذا المهذوم الذى ينظر  
إليه الورثة ولا يرونها إلا من خلاله . وعلى حسب الظروف والأحوال  
تبدو بألوان وأشكال ، فأحيانا تكون قبيحة المنظر عندهم بطيئة الحركة  
لا تريد أن تتقلقل ليأخذوا كل شىء ، وأحيانا تبدو فى مهابة الذى يترك  
ميراثا يذكره بعده الوارثون بالدعاء والترحم .. لكن ذلك نادر .

ودق الجرس فى الشقة التى تحتها ، فأدركت أن الليل قد مر جزء منه .  
ها هو ذا قد عاد من السهرة . إن الحياة فى شقتها هى تجميع عفشها وتحل  
خيامها للرحيل .. وفى الشقة الوسطى تبدأ ..

لعلها قامت الآن لتجهز له عشاء . كانت تتسلى بالقراءة — تلك  
العروس — أو بتطريز الأحرف الأولى من اسمه على زوايا مناديله حتى  
يعود ..

عندئذ تركت كل شىء وقامت لتخلو له . وجلسا متقابلين على المائدة  
الملحقة فى حجرة النوم لأخذ العشاء الخفيف ..

وقالت الست نظيرة وضجيج السعال يملأ تجويف صدرها :  
— كنت أقدم له فنونا من السعادة .. لكنه لا يرضى .. إنه يريد  
أطفالا .. وما ذنبى ؟ .. لم يخلقنى الله قادرة على منح الأطفال .  
ثم سكنت . كان هناك صوت يسأل عن المسئول عن هذا الخلل ؟ لو  
كانت سليمة من هذا الخلل ما واجهت الليل وحدها هكذا . إن دخوله  
كثيب على الوحيد والمريض والمحزون ، وهى الليلة تحمل الثلاث الشارات  
جميعا .

وجاءتها قهقهة من خلال السقف . إنها العروسان في الحجرة التي تحتها . ما أشبهها وهي فوقهما ببقايا الزهرة تنزل من الثمرة بعد أن تعقد الثمرة . ستسقط حالا على الأرض ولن تذكر الأرجل أنها بقايا زهرة .. أندا .

\* \* \*

على أن نوبات المرض التي كانت تأتينا لم تكن تخلو من ملذات . كانت تتقبل الهدايا وتتطلع إلى النفس البشرية عارية مكشوفة . فمثلا يأتي « صلاح » ابن أختها زينب بأكياس السكر والليمون ويحدثها بعينه المتملقتين عن عجزه عن الزواج من أجل المهر وارتفاع أسعار المعيشة : « كل شيء جاهز إلا المهر يا خالتي .. ولو كنت أجد من يقرضني مائتي جنيه ولو بالربا لا قترضت » ، ثم يسكت ليقول وكأنه تذكر شيئا : « طيب .. ولكن كيف أسدد المبلغ ؟ ثم ينظر إلى السقف .. إلى أعلى ، ويدعو لها بطول العمر .. »

وحمدى ابن أختها « توحيدة » .. أخذ منها نقودا ليشتري دواء فغاب وغاب ، ثم عاد باكى العينين .. « ضاعت النقود يا خالتي .. سقطت الورقة ذات الجنيتات الخمسة » .

وربما كان ذلك حقيقة ، لكن الحقيقة في موطن الشبهة أضعف بكثير من الباطل إذا ظللته الثقة . إنهم طامعون .

ويمتد الليل بالست نظيرة لا يؤنسها فيه إلا الفكر .

« ولو كانوا يعدونني بالصدقات ، أو لو كنت خالية من الميراث فهل كانوا يستعجلون وفاتي ؟ ولماذا لا يفعل الأبناء مع آبائهم ما يفعله الوارثون الغرباء ؟ .. »

— ١٦٣ —

ولم تجب عن السؤال لأنها تذكرت شيئا .. تذكرت أن توحيدة سألتها ذات يوم عن صحة ما نعى إليها .  
— خيرا ؟ ..

— سمعت أنك يا أختي قد كتبت نصف البيت لصلاح ابن زينب .. إن حمدي يحبك أضعافا مضاعفة وهو لا يزال محتاجا إلى نفقات ، أما الآخر فقد توظف .

وعندئذ علاها الوجوم وودت لو أنها هدمته بيديها . والسؤال المؤلم يؤلم ولو كان صادرا عن سداجة أو حسن نية ، كله سواء . والست نظيرة لم تكتب لأحد شيئا ، وإنما هم يوحون إليها بما يدعون سماعه .  
وشيئا فشيئا كرهت الميراث والوارثين وأوشكت أن تكره المورث نفسه .. زوجها . وصممت على خطة جديدة .

ولما دخلوا عليها في مرضها القاسى وجدوا عندها محاميا ، فراغت أبصارهم وامتلاأت حدقاتهم بالنزاع ، وعندئذ أشبعت خالتهم فضولهم وقالت إنها ستكتب وصية .. ولن يكون ما لها من نقود وأثاث وعقار مقسوما بالتساوى بينهم . إنها ستخصص الذين يخصصونها وتبر الذين يبرونها . إنها تعرف أن أيامها معدودة ، وقد رأت في منامها أن الريح أطفال مصباحها وهى طفلة على الطريق وعندئذ تاهت في الظلام . وما المصباح إلا العمر ، وما الظلام إلا الموت . إن هذا المحامى كتب الوصية — قابلة للتغيير فى كل لحظة — وسيفضها بعد موتها ليعرفوا كل شئ .

وكان هذا العمل أشبه بطلقة الذعر التى تعلن بدء السباق — فكف صلاح عن ذكر النقود أمام خالته ، وعاد حمدي يجدد الولاء ويقسم أن

المبلغ قد ضاع يوم ذهب يشتري الدواء ، وجاءت الأخوات يعودونها ، وترك أحدهم لها سبحة حجازية ، وترك الآخر لها مصحفاً تحت الوسادة جلده من اللون الأخضر .

ولما خفت نوبة المرض وعادت شبه عادة .. لم يخف طوفان الحب ، ونام صلاح عندها ليالى متعاقبة رغم بعد الشقة بينه وبين عمله ، يدلك لها رجليها ويصب على يديها ماء الوضوء الساخن .

وفي نوبة المرض التالية دخلوا فوجدوا المحامى فأدركوا أنها تغير الوصية ، وكان جهم محموما وتزاحموا على حجرتها كما يتزاحم المجاذيب على مقصورة . وأهدى زوج توحيدة إليها شالا من القطيفة ، أما زوج زينب فقد أهداها بسجادة للصلاة . واشتبكت الأخوات ذات مساء للتزاحم على السهر فى راحتها ..

وفي اليوم التالى رأى المحامى .. فأدرك الورثة أنها تغير أحد البنود . فتضجر صلاح ولعن المال ، وانتهر حمدي فرصة غيابه وحمل عنه رسالة السهر . فكان ذلك مدعاة لعودة الأول إلى المبدأ .

لم تكن الست نظيرة تريد منهم شيئا ، لكنها شعرت بلذة السائق حين يقود قطيعا كبيرا يعود من التوت ، عصا من الخيزران ، فاسترسلت فى الأمر ..

\* \* \*

ثم ماتت الست نظيرة .. وحرص جميع الورثة يوم وفاتها على أن يظهروا بمظهر من أصيب بكارثة عاطفية مرة ، ولا شيء أكثر من ذلك . وحملت غالية ، وودعت غالية وبدموع غزيرة . وفى مكتب المحامى اجتمع الورثة .. كان صلاح يتنهل إلى الله ،

وحمدى يتمم في صمت ، والأختان تلبسان الحداد .

ثم قرئت الوصية ، قال المحامى :

« توصى نظيرة بنت فلان بكل ما تملك من عقار ونقود ..

وتوقف المحامى عن القراءة ، ونظر في وجوههم ووضع الورقة وأشعل

سيجارا ، كأنه شاء أن يحاكى موكلته في عبثها بأعصاب الورثة — ثم

أكمل :

« لست فتيات غير جميلات يخترن بالقرعة بين لقيطات ملجأ

الحرية » ، ليكون هذا المبلغ ضمانا لحياتهن وأشبه ببائنة « دوطة » . أما

المنقولات فتقسم بين توحيدة وزينب بالتساوى » .

وخرج الرجال أولا من المكتب . أما النساء فقد غلبهن البكاء إلى حد

يصعب وصفه .

وفي الطريق ، سأل صلاح بثأر هستيرى :

— ولماذا لقيطات ملجأ الحرية ؟.. لماذا ؟..

فأجاب حمدى :

— إنه كانت ترى أنواره من نافذتها في الليل عندما يكون الوقت

صيفا ، والنوافذ كلها مفتوحة .

وأطلق ضحكة مجروحة .

## لقاء في الصيف

كنت أعرفه ولم أكن رأيته منذ ثلاث سنوات ، وكان زميلي في شركة التأمين الكبيرة المشهورة في مدينة الإسكندرية ، وكان بيننا مثالا غاليا للوفاء والحب والألفة .

وفي بعض الأحيان كان يضايق الناس بوفائه .. إذ يسبغ عليهم من اهتمامه ورعايته وتطوعه بما قد يجلب له المتاعب ، ما يثير خجل بعضهم أو ضجره منه .

و كنت أعرفه أيضا .. يتورط لجماعة الأصدقاء فتعشى على حسابه ، أو لزميل نصاب يعيش على مال غيره .

ولم يكن طليّ الحديث ولكنه كان بشوش الوجه ، ولم يكن وسيما ولكن العين تحب أن تتأمله . لا يعتمد على مثل عقله في الملمات ، ولكنه كان ماهرا في تنفيذ ما قد يسند إليه .

كنا نضحك منه دون أن نستخف به ولا نحتقره ، وإذا اجتمع شملنا في مكان ما وتختلف ، أحسنا بقلق مبهم ناشئ من تخلف شيء غير أساسي لكنه نافع ، كالقلق الذي يحدث من فقدان الكأس الفارغة في مكان خلوى مع جماعة بين يديها زجاجة من أجود الخمور .

وكنا حين نتحدث عن حبنا أو مغامراتنا يسخر منا بابتسامة طويلة أو ضحكة قصيرة . كان يتهمنا بالطيش أحيانا ، وأحيانا أخرى بسعة الخيال . وكان أطول الأصدقاء لسانا وأبرعهم سبابا يقول له :

« إن أجمل ما فيك أنك ذو إحساس مباشر ، لا يحتاج إلى كل



ما اخترعه الإنسان المتطور والعقل المتنور من خزعات حول العواطف الجميلة .. »

فيهز رأسه ويتنسم مبدئا أسفه العميق لانعدام فهمه العميق ، مما يحمل الصديق الآخر على أن يستطرد قائلا :

« لو فرضنا أن المأكولات فقدت طعمها ، فإن ذلك بالنسبة إليك لا يعنى شيئا أبدا . لأنك لا تحس بوجودها إلا عن طريق امتلاء المعدة .. وهذه هي فلسفتك في الحب ، هل فهمت الآن ؟

\* \* \*

ومضى على فراقنا ثلاث سنوات لم أره خلالها . كانت الجماعة قد تفرقت . فبعض الذين درسوا الحقوق خرجوا من الشركة ودخلوا سلك القضاء . وبعض خريجي التجارة آثروا وظائف الحكومة . وبعض النشطين من المؤسرين المغامرين اشتغلوا بالأعمال الحرة . وبقيت أنا في الإسكندرية .. آخر فرد في الجماعة بعد أن انتقل كمال أفندى — الذى كنت لم أره منذ ثلاث سنوات — موظفا في حسابات الحكومة في مدينة القاهرة .

وحين وقع بصرى عليه لم أجزم بأنه هو . إن مرور الأيام يعطينا أو يأخذ منا ، لكنه على كل حال لا يدعنا على حال واحد ، ومن خلال سمرة فصل الصيف التى تتركها شمس الشواطئ على الوجوه ، ومن خلال ذقن نما شعره قليلا ، ومن خلال سحابة خفيفة ولكنها حقيقية ، سحابة من الهموم — من خلال كل هذه المواقع عرفت وجه كمال أفندى .. ذلك .. لأن الوداعة والطيبة والتسامح التى هى لباب خصاله كانت واضحة لعينى ولكن على هيئة أخرى .. على هيئة استسلام

نهائى لا يعرف الجدل .

كنت جالسا على الكازينو ، وهو على مقربة منى يقلب بين يديه صحيفة سياحية باهتمام وعدم مبالاة الفارغين . كان يتسكع فى قراءتها كأنه يضيع وقته على قارعة الطريق . وكانت نظراته البطيئة إلى الصحيفة تقول : علام العجلة ؟ وبين الغينة والفينة ينظر إلى الأمام نحو البحر ثم يعود إلى ما كان فيه .

وهمت أن أقوم فأضع كفى على عاتقه وأنبهه إلى وجودى ، ولكنى عدت فذكرت أن الوجوه قد تتشابه وأنه من الجائز أن يكون رجلا غيره ، فأطلت من نافذة الكازينو التى تنظر إلى رمال الشاطئ ورفعت صوتى هاتفا وظهرى إلى الجالسين وكأنتى أنادى على طفل يعبث فى الرمل :

« كمال .. كمال .. يا كمال »

— عيناها وأنا أعانقه تنفرغر وتحس بشرة وجهى بذقنه غير المخلوق .

\* \* \*

— أهلا يا رجل .. أين أنت من زمان ؟

وبدأت علامات عرفناه بها قديما تأتى إلى قسماته . وجلسنا نستعيد الماضى ، ونذكر « محمود » وكيل النيابة ، و« عثمان » صاحب مكتب الاستيراد والتصدير ، و« حامد » الذى تخلى عنه الحظ دون بقية الأصدقاء .

واستطردت كأنما لأستثير ما فى نفسه ليقول مثل ما قلت له . وأخيرا تنهد ومال نحوى يذكّرنى بما قاله له بعضنا قديما ، من أنه « مخلوق ذو إحساس مباشر لا يؤمن بما اخترعه الإنسان المتطور والعقل المتنور من خزعبلات حول العواطف الجميلة » فقلت له :

— ١٦٩ —

— نعم أذكر .

فأجابنى :

— لكن الذى حدث لى يعد أن فارقتكم كان عكس ما تعلمون .

— هل لك قصة ؟

— نعم ، وسأحكىها لك .

\* \* \*

ككل العزاب كنت أنتقل من مسكن إلى مسكن ، وأنت تعلم مقدار حبى للعزلة وخوفى من مشاكل الحب .

فكدت أكتم ضحكى حين رأيته يتكلم عن الحب بنفس السذاجة القديمة . واستطرد :

كان يحدث أن أسكن فى بيت فيأخذ بعض الجيران فى مناوشتى فأرحل عنه . ويحدث حيناً آخر أن أشعر بأننى فى صحراء فأرحل باحثاً عن الأُنس . وأنت تعلم أننى من العزاب الذين لا يدخلون بيوتهم إلا آخر الليل .

« قلت فى نفسى : هذه هى الروح القديمة ستبدأ فى الظهور » ، فضحكت وضربته على كتفه وقلت له : أكمل .

فقال :

— وفى منزل مكون من دورين فقط ، الأسفل مخازن ودكاكين والذى فوقه مكون من شقتين صغيرتين فى حى حديث الإنشاء غير متمتع بالنظافة العامة ولا بالنور .. فى هذا المسكن أخذت شقة من حجرتين . وجدت أنه بعد ما عدت مساء إحدى الليالى من السهرة ودخلت ، أن سمعت طرقة على الباب ففتحت ، فإذا بى أرى أمامى سيدة ..

« فحملت فيها أستشف دخيلة نفسها ، فإذا بها تخيب أملى »  
 — لم تكن إلا صاحبة البيت الساكنة فى الشقة المقابلة ، سيدة مسنة  
 مريضة ، سألتنى وصوتها يتذبذب فى ارتجاف من الألم عن نعان أو ليمون  
 أو أى شئ يوقف المغص . وعرفت أنها وحيدة وأنها محتاجة إلى عناية .  
 وكان الوقت شتاءً ، ولست أدري لماذا وجدت فى منزلى نعاناً .. كنت  
 أحب أن أشربه مع الشاي ، فأجبت طلبها . ولما أيقنت أنها وحدها  
 دخلت معها فصنعت لها شراباً دافئاً وملأت لها إحدى الزجاجات بالماء  
 ووضعتها عند قدميها . وانتظرت حتى أرى ثمرة علاجى فإذا ببوادر  
 الراحة تطفو على صفحة وجهها المتألم ، ودعاء خجل متعثر همس به . ثم  
 سألتنى قبل أن أنصرف :

— أليست هذه الليلة ليلة الجمعة ، كأتى ناسية ؟  
 فأكدت لها صحة ما تقول ، فأبدت قلقها لأن بنتها قد تأخرت فلم  
 تعد من السفر حتى الآن .  
 وهمت أن أسألها عن بنتها وعن تفاصيل حالتها العائلية لأننى لم أحس  
 أنها وحدها قبل ذلك ، لكننى آثرت ألا أتدخل فى شئون الغير .  
 ولم تمض دقائق حتى سمعنا وقع أقدام على السلم . إنها هى بلا شك ..  
 فالصاعد إلى فوق لا بد أن يكون لى أو لها . وأنا لا أحد يأتى إلينى . وكان  
 من الطبيعى أن أفتح الباب للقادمة . فلما فوجئت برجل فتحت فى عيني  
 جميلتين فيهما اتساع وجه وتعب ، ثم دخلت وشاركت أمها فى  
 استدعائى . ولأول مرة أحسست بخزعبلات العواطف تلمس قلبى  
 لمسات مترددة لم تلبث أن تحولت إلى قبضة تدق على بابهِ بالحاح ..  
 « ورجعت بكرسى إلى الوراء وقلت له : يعنى بالاختصار أحببت »

— لا تقلق.. كن صبورا.. كان قلبي مثل أرض « الملاحه » عند مدخل المدينة ، فأصلحته هي ثم زرعته بالحب .. هل ترى لي يا صديقي ؟ إننى أرى في عينيك علامات الرثاء . ليتك تضحك منى كما كنت تفعل قديما .. اضحك ليخف عني الحزن . إن سخرية الناس من همونا قد تخدعنا عنها فتوهم أنها صغيرة ، المهم . إننى عرفت أنها مدرسة فى مدينة قريبة ، وأنها تقطع الطريق ذهابا وإيابا إلى مدرستها فى قطار السكة الحديد ، وحدث أن تأخر بها القطار فى هذه الليلة التى احتاجت أمها إلى عناية .

وشيعا فشيعا ، وعن طريق رعاية هذه السيدة ، أحسست وأنا بلا أم منذ حداثة سنى أننى وجدت أُمى بعد أن كبرت ، وأن لذة كبرى تتحقق لى لأنى عملت من أجلها شيئا . وبدأ الليل يأخذ صورة أخرى فى خاطرى حين كنا نجتمع نحن الثلاثة ، فيتحدث الشابان — أنا والفتاة — عن مشاكل الحاضر ، وتحدث العجوز عن آلامها وعن لذتها حين ترى باسمه فى ابنها المتزوج البعيد عنها وفى بنتها القريبة منها .

ولعلك تسألنى عن سر انتصار هذه الفتاة دون غيرها من الفتيات ؟ كان الجو الذى نمت فيه علاقتنا ساحرا متلصبا فى وقت واحد ، وكان مشعبا بالخيال فقد حدث أن تصورت مرة بعد مرة ونحن الثلاثة فى جو الحب والود والطمأنينة أننا زوجان ، وحدث أن استغرقت فى خيالى حتى لم أعد أفرق بينه وبين الحقيقة . وكنا نتكلم ذات ليلة والأم راقدة فى فراشها متدثرة بأعطيها ، فانتبهنا فجأة إلى أنها مستغرقة فى النوم ، عند ذلك تبادلنا النظرات وقررنا أن نتسلل ونتركها تترتاح . وفى طريقى إلى مسكنى أوصلتنى إلى الباب فاشتبكنا فى عناق لم أذق مثله من قبل . ثم

— ١٧٢ —

درج الحب في طريقه قدما إلى الأمام . لكن .. آه يا صديقي ، وقع ما لم  
يخطر لي على بال .

ثم حدث أن نظر نحوي قائلا : لم لا تسأل عن النهاية ؟

فأجبت باستخفاف لأخفف عنه بعض ما يقاسيه :

— مفهوم أنك فقدتها بطريقة من الطرق .

فأوقفني بإشارة من كفد وقال :

— وماذا لو علمت أنني رأيتها بعيني هاتين مع رجل آخر ، وعلى حالة

تجزم أن ما بينهما ما يحرم على النفس الكريمة أن ترتبط بامرأة مثلها ..

فيه .. ما رأيك ؟؟

وأخذ يدق الأرض بقدمه ويهز رأسه ويسأل في شرود : ما رأيي ؟

فأدركت أن الحزن الحديث العهد قد فعل فيه ما فعل ، فرجوته أن

ينسى على الأقل أن يحاول ، فقال :

— ماذا ترائي أفعل الآن ؟ إنني أتنقل وأتنقل طالبا من الأماكن الغريبة

أن تلهمني أشياء جديدة .. لكنني حتى الآن ومن شهرين مضيا لم أحصل

على قليل أو كثير .

فقلت في حنان :

— عندى اقتراح . تعال عندى في الريف ، ستقيم في مزرعة صغيرة في

ضيافتي لمدة أسبوع وأظن أنك ستوافق .

\* \* \*

وكان الصباح نديا ونحن جالسان في شرفة واسعة تطل على حديقة

المنزل وأمام كل منا لبن وفاكهة . وبدا « كمال » حليق الذقن هادئ النفس

نوعا ما ، وتكلمنا في أشياء معظمها يدخل البهجة على القلوب . وفي

— ١٧٣ —

عصر ذلك اليوم سألتني ونحن نجتاز مدخل القرية :

— أليست هذه بقايا مقبرة ؟

فضحكت وقلت :

— نعم .. كانت قديما تشوه مدخل القرية ، فنقلوا ركامها ولم يبق منها إلا هذا الضريح وما يحيط به من ملحقات ، وهو لأحد أولياء الله كما ترى ..

وانتهى الأمر . ولم يسألني عن شيء ، ولم أوضح له ما قد يكون خافيا . وبعد مرور يوم آخر ونحن نتناول فطور الصباح قال لي :

— إن الفتاة التي حدثتك عنها لم تخفى .. لقد بالغت فيما قلت لكي أظهر بمظهر المضطر إلى الترك . لكن حقيقة الأمر أنها تزوجت غيري بمحض اختيارها وبلا ضوضاء .

ولم أجد بدا من أن أصدقه .. هو صاحب القصة ، وهو الذي يرويها .. ثم هو في ضيافتي .. ثم .. ألا يجوز أن يكذب قد أصيب بهزة عصبية ..

ولم يبق في الضيافة إلا يوم واحد .

وفي الليل حين كنا نتسامر والقمر يريق أشعته الوديعه على رعوس الشجر والأرض والحقول ، وفي فترة صمت شبت منها نفوسنا سمعته يتنهد ، وقال لي :

— اسمع يا صديقي .. إنني لم أقل لك الحقيقة منذ أول الأمر . إنها لم تكن ولم تتزوج ، إنها ماتت .. ماتت .. ماتت .  
وانخرط بيكي بعنف .

فتركته يفعل حتى إذا ما أفاق سألته في مثل رفق الأمهات العاقلات إذا

ضبطن أحد الأبناء متلبسا بكذبة ..

— طيب .. ولماذا نزلت هذا السلم .. لماذا لم تقل من أول الأمر ..  
فأجاب يتوسل :

— لأننى أريد أن تقول كلمة واحدة .. تقولها بعقيدة وحرارة لتصل  
إلى قلبى .. لتقول لى : إن الحالة الأخيرة خير من الفرضين الأولين .. خير  
من الخيانة أو زواج رجل آخر . فأنا أريد أن أقنع نفسى ولكن عن  
طريقك .. لأنها يا صديقى كانت صاحبة الأرض .. أقصد أنها أصلحت  
قلبى كما تصلح الأراضى البور ثم زرعت فيه الحب .. ولذلك كانت  
صاحبة الحق فيه . فهل تقول لى هذه الكلمة فأستطيع أن أنساها ؟  
ودمعت عينى وقلت له وأنا أقرب مقعدى من مقعده :

— اسمع يا كمال .. أتذكر المقبرة التى رأيتها عند مدخل القرية .. تلك  
التي نقلوا ركامها إلى مكان آخر .. إن ركام هذه المقبرة يكون هذه  
الحديقة .. وفى القديم كانت مستنقعا ثم ردموه .. وها هى اليوم كما  
ترى .. لقد ظل الفلاحون سنوات يخافون زرع هذه البقعة التى طالما  
خافوها .

ثق أنك ستنسى ..

وأخذت بيده بعد قليل حيث دخل إلى فراشه .  
وفى الصباح بعد أن تناولنا طعام الفطور رأيت صديقى يقلب فى الأفق  
الواسع عينين هادئتين ويتنفس طويلا ويقول فجأة :  
— سعيد .. ألا تحس معنى أن النسيم اليوم أكثر عذوبة ؟ ..  
فأجبت وأنا أخفى ابتسامى :  
— نعم .. نعم .. وسيظل هكذا دائما .



## حنانك يا أبى

كانت هذه الليلة هى التى قرر فيها نهائيا أن يترك الدار .. فقد انقضى اليوم الأول من أيام العيد وأخذت فرحة القرية تفتر .. وآوى كل إلى فراشه يفكر فى عمل اليوم التالى ، وكأنما انقطعت الصلة بينه وبين الحقل منذ شهر كامل .

أما « سعيد » .. الذى قرر نهائيا أن يترك الدار ويرحل ، فقد أعد الخطة بإحكام حين جمع ملابسه وخبأها فى مكان ما ليأخذها وهو خارج فى الصباح الباكر ، والكل نائمون ليرحل .. ليرحل إلى .. إلى حيث لا يدرى أحد حتى أبوه وأمه .

ولم ينم سعيد طول الليل . كان يغمض عينيه ليتخيل أنه بعيد عن هذه البقعة التى ولد فيها ، ويستعيد تفاصيل كل ما حوله من لون الباب وظلمة الدهليز ، إلى ملامح أمه الطيبة المطيعة ، إلى وجه أبيه الذى لم يتسم له .. عندما يفعل كل ذلك يحس حرارة الحنين وهو لا يزال فى الدار ، فضلا عن المخاوف من المجهول الذى سيتعرض له غلام فى هذه السن .

كان يرقد بجواره أخوه الذى يكبره بعام واحد .. وتحت نور المصباح القروى الساذج الضئيل النور — لَدَّ لسعيد أن يتأمل وجه أخيه .

كان مستلقيا على ظهره وملامح وجهه وهو نائم واقفة عند تعبير لا يتغير كأنه يجتاز حلما جميلا . ومن ملابسه الداخلية فاحت رائحة عطر من الذى يستعمله الفلاحون مرتين فى السنة .. يعنى فى العيدين . ودمعت عيناه حين تذكر من جديد أن أخاه هذا الذى يجتاز الحلم السعيد واليقظة

السعيدة ، من أهم الأسباب التى ستجبره على الفرار من الدار .

\* \* \*

وصاح ديك على السطح مؤذنا بقرب الفجر ، فنهض من مكانه وهو يسمع دقات قلبه وألقى على وجه أخيه نظرة كبتها الدموع . وبعد أن أقفل باب الحجرة وقف قليلا عند الحجرة التى تنام فيها أمه . وخيل إليه أنه على وشك أن يناديها ليودعها ، فعجل بالانصراف قبل أن يغلبه لسانه ، ولو أنه كان جاف الريق عاجزا عن أن يتكلم . واتجه نحو الخبأ فأخذ أشياءه وانسرب فى الدهليز يتحسس طريقه إلى الباب . وارتفعت فى سماء الدار قطقطة الأوز فغطت على الحركة حتى أقفل الباب وراءه وانصرف .

وأخذ يجتد السير كأنما كان وراءه من يتعقبه . ولفرط خوفه لم يحاول أن يلتفت وراءه ، متوقعا بين وهلة وهلة أن يحس بثقل كف على كتفه أو صفعة على وجهه . ولم يكن فى حسابه شيء أكثر رهبة من الخفير الجالس عند حدود القرية ، فإنه ربما تنبه له وعند ذلك ستنهار الخطة كلها . وسياخذه إلى أبيه ولا يكون هناك إلا البقية المؤسفة . لكنه لحسن حظه وجده جالسا على المصطبة محتضنا بندقيته وقد غلبه النوم .. وعلى الأفق قمر هزيل وتصابيح الديوك على السطوح يصل إليه تباعا كأنها فى سباق .

\* \* \*

وعلى الطريق الزراعى العام كان كل شيء هادئا . لكن نفس سعيد كانت شديدة الجيشان .. فيها ندم وأسف وعلى خديه دموع لا تجف ١١  
وكان متأبطا صرة ملابسه وفى جيبه نقود تكفيه عشرة أيام ، جمعها

من مصروف العيد ومن مناسبات أهمها المنح التي كان يأخذها من خاله .. ولم يذهب إلى محطة سكة الحديد القريبة .. بل اختار محطة أبعد .. ليركب منها بأجر أقل إلى مدينة « طنطا » حيث لا يسكن هناك أحد من أبناء قريته ، ولا يخطر على بال أبيه — إن فتش عنه — أن يذهب إلى هذه المدينة .

ولم يكن يقلقه شيء إلا أمر المبيت .. لكن سرعان ما خطر على باله اسم زميل له كان يتعلم معه في مدرسة القرية . وكان هذا الزميل أكبر منه عمرا وأكثر مالا .. ومن إحدى القرى المتاخمة .. وكان بينهما صداقة . وعلى أساس البجوحة التي يعيش فيها زميله يمكن أن يبيت عنده عدة ليال حتى يدبر لنفسه عملا .

وما أن ارتفع النهار حتى كان على باب مدرسته يسأل عنه ، وأخذته الدهشة حين رآه لكن الحب غلب على كل شيء . وذهبا معا إلى المسكن المشترك الذي يقيم فيه الطالب مع غيره . وعند هبوط الليل كان القروي الصغير يقص على صديقه ما دفعه على الهرب من أبيه :

« أنت تعرف أن أبى هو الخياط الوحيد في القرية ، وهو لذلك يعيش في سعة من الرزق . وليس له من الأولاد إلا أنا وأخى « سعد » الذى يكبرنى بسنة واحدة . لكننى عشت بين أبى وأمى — وأبى على الخصوص — وكأننى غريب عنهما .

ولم يشجعونى على الكلام مرة ونحن على الطعام ولا حين يجمعنا السمر . وكنت كلما حاولت أن أشارك فى حديث أو أدلى برأى سخر منى أخى الكبير وانحاز إليه أبى . أما أمى فلم تكن لائمة أو ساكنة لذلك فإنى لم أحس أننى واحد من هذه الأسرة يوما من الأيام .

وبمرور الزمن أصبحت أكره أخى ، وكان أبى أشبه بالعصا التى تقلب النار كلما خمدت . الأعمال فى الدكان مقسومة إلى قسمين .. أحدهما فنى مشرف والآخر عادى تدخل فيه أعمال الخدمة والنظافة . ولعلك تستطيع أن تعرف نصيب كل واحد منا على ضوء ما حدثتكَ عنه . ولن أقص عليك كل شئ فى حياتنا لأن هذا غير ممكن ، ولكننى سأقص عليك تفاصيل حادثة وقعت لنا قريبا وكانت هى آخر عهدى بدار أبى ، لأننى لم أطق الإقامة فيها بعدها .

كان ذلك قبل العيد بشهر ، وكان أبى غائبا عن القرية .. بات ليلتين فى الخارج ليشتري لنا مطالب العيد .

وكان أخى « سعد » بطبيعة الحال يقوم مقامه أثناء غيابه . وكنت أرى فى عينيه نظرة الزهو والخيلاء وهو مكب على جلباب من الصوف لأحد أغنياء القرية يعمل فيه بإبرته ، وأنا جالس على ماكينه الخياطة أحبك قميصا رخيصا لأحد الفلاحين . وقال لى سعد فى فترة الغداء :

— هل تعرف لماذا سافر أبوك ؟

فقلت باختصار ومرارة :

— لا . طبعاً .

فعادت الابتسامة المزهوة ترفرف على شفثيه ، وطغت على نظراته أمارات خبث وقال :

— إنه سيشتري جلبابا من الصوف .

فسارعت قائلاً :

— لأجل .. لأجل .. العيد !؟

فضحك وردّ فى سخرية أخرجت الكلام فى أنفه ..

— نعم .. لأجل .. العيد . لماذا لا تقول من أجل ؟

— من أجل من فينا ؟!

— وهل هذا محتاج إلى سؤال أيها الغبي ؟ من أجل أنا .. أما أنت فأنت تعلم ماذا ستلبس !

و كنت غنيا من التعريف طبعاً ، فإننى أعلم أنى لا ألبس إلا ما يخلعه أخى . لكن فرحتى بملابسه القديمة لم تكن تقل عن فرحته بالملابس الجديدة على الرغم من حفلة التأنيب التى كان أبى يقيمها لى يوم آخذ الملابس المخلوعة : « لو كنت تستحق جديداً لقدمته لك » .. « إن أخاك يأخذ أجر اجتهاده وذكائه ، وأنت تأخذ ثمن غباوتك وإهمالك » . وقلت له مرة : « أعطنى فرصة واحدة لأكون مثله » . فكانت الفرصة صفقة على خدى واهتاما لى بأننى أكره لأخى الخير .

وسكت القروى الصغير برهة وحملق فى سماء الحجرة ثم تنهد ليكمل حديثه :

— ولما عاد أخى يسخر منى ويبالغ فى زهوه بمنزلته عند أبيه ، ثار الغلّ فى قلبى فقلت له : عندما يعود أبوك من السفر فإننى سأعرف ماذا أقوله عنك ليعرف أنك غير أهل هذا كله .

فأجابنى متحدياً :

— ماذا ستقول أيها الكذاب ؟!

فهززت كتفى قائلاً فى عدم مبالاة :

— أنت تعرف .. نعم تعرف !!

فقام غاضباً وسحبنى خارج الدكان وأشبعنى ضرباً . وتجمع الفلاحون ففضوا الشجار وقال أحد المسنين منهم : « إذن ماذا تفعلون لو

غاب أبوكم إلى الأبد ؟

ثم عاد أبى ..

و كنت بعيدا عن الدكان لأمر ما ، لذلك فقد فوجئت بوجوده فيه .  
ولما ألقىيت عليه السلام لم يردّ .. وكان متغير الملامح بشكل بث الرعب فى  
قلبى ..

وتقدمت منه فسلمت عليه وملت لأقبل يده ، فسحبها منى ولطمنى  
على وجهى ..

خيّل إلى أننى غريب عنه وأنه ليس أبى . ومن خلال دموعى رأيت  
بسمه الشماتة على وجه « سعد » . فرفعت صوتى سائلا باحتجاج عن  
سبب كل هذا ، فما كان من أبى إلّا أن قدم لى القميص الذى كنت أخطيه  
وبه تلف بالغ صنعته بالطبع يد أخى فى أثناء غيابه ، ولم أنكر أننى أنا الذى  
قمت بالحياكة لكن غبرى هو الذى قام بالتلف . وسارعت فورا باتهام  
أخى وبحت لأبى بالسرا الذى هددته به ، فقلت له : « إنه يدخن » .  
وابتسم « سعد » وابتسم أبى سائلا : لماذا لم تهمة إلّا الآن ١٩ ثم  
استطرد يقول لى : « لا .. لا تقسم ، فإن كذبة بلا قسم أصدق من  
صدقك باليمين » .

وعند ذلك عرفت أنه لا وسيلة لإصلاح الواقع .. ففرت .

\* \* \*

وفى الوقت الذى كان الشاب يقص فيه القصة ، كان حزن مشوب  
بالحنق يحيط بقلب أبيه .. وحزن شديد مشوب بالعجز يحيط بقلب  
أمه .. وحزن خفيف كأنه على غريم منافس خرج من الميدان يحيط بقلب  
الأخ .

وسأل الأب فى مناطق قرية ، ثم قرر عناداً ألا يسأل عنه ، وأن الجوع كفى بأن يرجعه إليه .

أما الشاب فقد ذهب إلى أحد الخياطين فى المدينة وبدأ يعمل عنده ، وسرعان ما نال الفرصة التى كان محروماً منها عند أبيه وظهرت حقيقة موهبته .. ومع الأيام نال ما كان يصبو إليه .

وفى ليالى الأعياد التى يحن فيها كل غريب إلى أهله ووطنه — كان حنينه إلى القرية .. لا يمكن أن يكون خالصاً من هذه الذكريات .

ولما ثبت نجاحه فى المدينة لم يكن من المعقول أن يعود إلى القرية ليعمل خياطاً من جديد . بل كان العكس .. فقد بات أخوه يحسده ويحلم باليوم الذى يصبح فيه فى منزلة مثل منزلة أخيه .

وتمر الأيام . وينتقل « سعيد » إلى العاصمة حيث يعمل عند أشهر حائكى الملابس العربية فى حى الأزهر . ويدخل عليه رجل أنيق من رواد المحل فيجاذبه أطراف الحديث ، ويتبين كل منهما أنهما من أهل قرية واحدة . وسأله الرجل فى اهتمام :

— ألم تسافر إلى القرية من زمن بعيد ؟

— منذ عشرة أعوام وأكثر .

فشقق الرجل مستكثراً .

— عشرة أعوام ؟!

— نعم .

— ولم تر أهلك ؟

فسكت ولم يرد ، فاستطرد الرجل :

— لقد رأيتهم أنا فى الشهر الماضى .

— وكيف حالهم ؟

— أحسن ما يمكن عمله أن ترى أباك بنفسك .

ولما انتهى اليوم ورجع « سعيد » إلى مسكنه لم تفارقه ذكرى هذا الحديث . وأطل من نافذة حجرتها العليا في حي « القلعة » فرأى أنوار القاهرة تحتها ورأى في السماء من فوقه قمرا ذكره بالذى رآه ليلة فر من دارهم . لكنه في هذه الوهلة لم يحس إلا بحنين صاف يشوبه الحب . فقرر أن يسافر إلى أهله .

ولم يكن بينه وبين العيد إلا بضعة أيام انتظر حتى انقضت ، ثم سافر بغتة . ورأى أثناء عودته الطريق الزراعى الذى حمله إلى الخارج والمصطبة التى نام عليها الخفير ، فخيل إليه أنه يدخل « مدينة مفتوحة » . كانت منذ عشرة أعوام مدججة بالسلاح .. أعنى ليلة رحيله .. فابتسم . وكان الوقت ليلا والفصل صيفا وأبواب الدور معظمها مفتوحة . ورائحة الكعك تنبعث من الأفران فيعيق بها الجو .

ووقف « سعيد » على باب الدار وكان مواربا .. وتناهى إليه صوت أمه مرتعشا ضعيفا ولم يسمع صوت أبيه . فلما دخل ألفاه جالسا فى الدهليز فحملق الرجل بعينين ضعيفتين أهلكتهما الإبرة قائلا :

— سعد ؟

— لا يا أبى .. أنا سعيد .

— سعيد ؟ .. مستحيل . لكن ..

وأمسك رأسه بكلتا يديه فشم من ملابسه رائحة المدينة ، فأجهش بالبكاء وصار يقول فى صوت عال وحركة غير إرادية :

— نعم سعيد ! سعيد ! .. سعيد ! .. يا أم سعيد .. تعالى فهذا



ابنك ..

وجاءت من الداخل امرأتان إحداهما عجوز والأخرى صبية . وكانت الأولى هى أمه والثانية زوجة أخيه .. وعاد من الخارج الابن الأكبر فألقى أخاه فى الدار ، فسلم كلاهما على الآخر ودموع الفرح تغالب عينيهما .. لأن البعد يغسل عن نفوسنا أحقاد المطامع .

ولما انتهت السهرة وانصرف الابن الأكبر ، انفرد الوالدان بانهما الصغير ، وقصّ الأب على ولده مرارة العيش التى يلقيها الآن فى القرية . فها هو ذا نصف مكفوف . وقد كثر الخياطون فى القرية ، وكان المنافسون الجدد أكثر مهارة من أخيه الكبير كذلك فإن الأحوال قد ساءت . ثم سكت الأب واستأنف حديثه :

— وهأنت ذا ترائى أعرج .. لقد سقط المقص الكبير بكل ثقله من أعلى منضدة الماكينة على قدمى فتك فيها عرجا خفيفا . وهذا ما لقيته فى عشر سنوات يا بنى !

وكان سعيد يقرر خطة أعلنها قبل عودته إلى المدينة :

— ستكون معى يا أبى أنت وأمى لأننى فى مجبوحة من الرزق . أريد ناسا يشاركوننى فيها فتعالوا لنعيش معا .

فسأل الأب فى خجل :

— حسن .. لكن .. وأخوك ؟

فهتف سعيد فى عجلة :

— وأخى أيضا .. وهل تضيق علينا المدينة ؟ سأدبر له عملا .. لكنه سيكون فى بيت مستقل إذا أراد ذلك ..

صفحة

## الفهرس

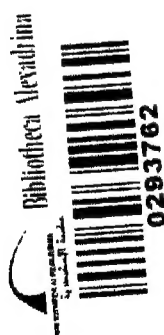
٥	١ - حلم آخر الليل .....
١٧	٢ - الراية البيضاء .....
٢٩	٣ - سقف من الزجاج .....
٣٩	٤ - الشيء الممكن .....
٤٧	٥ - السلوى .....
٥٥	٦ - اقتلوني بسيف الحب .....
٦٦	٧ - الرجل المريض .....
٧٤	٨ - سحابة صيف .....
٨٥	٩ - امرأة ومصباح .....
٩٢	١٠ - يريد أن ينساها .....
٩٩	١١ - زوجة مثلها .....
١٠٨	١٢ - أملان يتحققان .....
١١٦	١٣ - بركة مخزن القمح .....
١٢٣	١٤ - بقية العمر .....
١٣١	١٥ - صديقان في المدينة .....
١٣٧	١٦ - جددنا المواعيد .....
١٤٦	١٧ - عبير الحرية .....
١٥٣	١٨ - قلب إنسان .....
١٥٩	١٩ - اليوم الموعد .....
١٦٦	٢٠ - لقاء في الصيف .....
١٧٥	٢١ - حنانك يا أبى .....

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٩

الترقيم الدولي : ٩ - ٠٢٨٦ - ١١ - ٩٧٧



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة



الشنن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه